

عالمية



روايات

الأندلس





**إهداء 2006**  
**الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر**  
**الإسكندرية**

روايات  
عالمية



العدد رقم ٢٦٧



# الابن



للكاتب الفرنسي الكبير :

جورج سيمون

تعريب

الرائد: حسن محمد أحمد



## الفصل الأول

### « ولدى »

هل ياترى ستتبسم حين تقرا هذه الكلمة وتشعر بمدى  
حيرتى واضطرابى وأنا اكتبها لك ؟. فمنذ سنوات طويلة لم اسطر  
لك حرفا ، اظنه منذ كنت طفلا ترحل بعيدا عنى فى رفقة والدتك  
فى عطلاتك الدراسية وتضطربى اعمالى للبقاء فى مكتبى ، وكنت  
أخصك وقت ذاك بسطر أو سطرين ابدوهما عادة بكلمة « بنى »  
وأحيانا « طفلى » أو فتاى الصغير ، ولكنى ارى ان كلمة « ولدى »  
تحمل فى معناها وبين ثناياها كل الحب والقوة والاعزاز ، ومع  
ذلك فهى تبعث فى نفسى احساسا من الكآبة والحزن ، وكأنى اكتب  
وصيتى !

ومهما كان الامر فلا مفر لى من ان ابدأ رسالتى بطريقة ما ،  
وانى لأشعر الآن بمثل ما كنت أشعر به حين كنت أدخل عليك  
غرفتك فألقاك غارقا بين كراساتك وكتبك ، فأقف مترددا لحظات  
متهيبا كأنى فى محراب ، ثم اجلس على طرف فراشك وفى  
النهاية اتشاغل باشعال احدى سجائرى .

ولعل اكثر ما يضايقنى انى لا اعلم - يقينا - متى ستقرا خطابى  
هذا ، أو ما عساك تشعر به وقتئذ ، ولا أخفى عنك انى طالما فكرت  
فى بادىء الحال فى ان اتحدث اليك بنفسى ، ولذلك كنت أحضر  
الى غرفتك فى الفترة ما بين عشائك وأوبتك لفراشك ، ولكن  
صدقنى يا ولدى ، كانت الكلمات تحتبس فى حلقى فأظل جالسا  
على حرف سريرك أتأملك بقلبى قبل عينى ، وانت مكب على كتابك  
معللا نفسى بالصبر حتى ترفع رأسك وتلتفت نحوى قليلا وانت  
تغمغم فى شروود . « ايه ! وكيف الأحوال ؟ » .

لم يكن بيننا الكثير مما يقال ، وفى الواقع لم تكن نشعر بحاجة  
لتبادل أى حديث ، ولا اعلم هل كان سبب ذلك تحفظ كلينا فى  
علاقته بالآخر ، أو بعده عنه بقلبه وافكاره ؟ .

وعلى اية حال فلاشك ان الكتابة اليك ايسر شأننا من الحديث  
معك ، ففى وسعك أن نعيد القراءة مرات ومرات ، فتكشف فى كل  
مرة آفاقا جديدة تساعدك على العثور على اجابات لتلك الاحاجى

التي كانت تحريك من حين لآخر ، وان كانت ماتزال كلها او بعضها على الأقل تسبب لي كثيرا من الآلام والقلق والأحلام المزعجة !.. حاولت - كما ذكرت لك - مفاتحتك بالحديث ، وبالتحديد منذ الثالث والعشرين من أكتوبر صبيحة يوم دفن والدي .. بل اننى لا ازال أذكر تلك اللحظة التي اتخذت فيها قرارى المذكور .

كان ذلك فى كنيسة « لوفيسينيه » حين كنا تقف جنبا الى جنب فى الصف الأمامى على يمين التابوت الكبير ، وصوت الأرغن يداعب أوتار القلوب ويشنف الأسماع ، والدتك تقف مع شقيقتى أمام الهيكل ، وباقى السيدات ينتظرن فى الخارج مع عمك « بيرفاشيه » .

ولم يكن عدد شهود الصلاة كبيرا : القس وغللمان يرددان الأناشيد ثم ضارب المفرق ، ونحو ثلاثين شخصا تركت اقدامهم الموحلة آثارا فوق الأرض الرخامية الناصعة البياض ، حيث كانت السماء تمطر مدرارا منذ الصباح ، وكنا قد مشينا خلف الجثمان من البيت حتى الكنيسة .

فى تلك اللحظة فقط ، اكتشفت فجأة أنك أطول منى وارشق قواما فى معطفك الأسود الجديد الأنيق وشعرك المرسل الطويل الذى تعتقد أنك أنه أطول مما يجب ، ووجهك النحيل وقد رفعته شامخا بأنفك فى تحد للناس أجمعين ، ومن عينيك المثبتتين للأمام، كانت تنبعث نظرات قوية .

ترى كم مرة فى حياتك دخلت فيها بيتا من بيوت الله ؟ وهل تشعر فى نفسك برهبة حينما تشهد تلك الطقوس الدينية التى تجرى أمامك ؟

لقد وقفنا معا فى ذلك المكان المقدس فى مرة سابقة تشابه مثل هذه الظروف تماما ، ولكن قبلها ببضعة شهور وفى الثالث والعشرين من يناير الماضى « اليوم نفسه من الشهر ، اليس هذا عجيبا ؟ » وكان ذلك بمناسبة وفاة أمى - جدتك - وزوجة الرجل الذى يرقد الآن فى الصندوق تحت الفطاء الأسود ذى الصليب الفضى .

ولم أكن - حينما وارىنا جثمان جدتك بالثرى - قد أقيت اليك انتباها ، اذ كنت أظنك مجرد طفل - برغم تجساوزك عامك



السادس عشر ؟ ولكنى وقد رمقتك بطرف عيني الآن شعرت بأن من كان يقف بجانبى رجل وشيد زكى القلب دقيق الملاحظة يسجل كل شىء ، فى ذاكرته .

و حين كنت تأتى معى الى « قصر ماجالى » كنت تنقل بصرك فى أرجائه دون أن تنبس حرفا ، ذلك القصر العتيق الذى عاش فيه أبواى . والذى لن يسكنه أحد من بعدهما ، ولن تعود لنا به صلة بعد الآن ، كنت المحك وكأنك ترسم فى ذاكرتك أدق التفاصيل . وقد استمعت خلال الأيام القليلة الماضية الى ما كان يدور من الحوار والنقاش العائلى فى أمور الجنازة دون أن تفتح فاك بكلمة وقد ارتسم الضيق والملل على محياك وبك رغبة ملحة فى ان تنتهى من ذلك الأمر المكروه سريعا .

كذلك كنت أتأملك طوال الشهور الماضية حين كنت ادعوك أيام الأحاد لمرافقتى فى زيارة قصيرة لجدك حيث تمضى معه بضع لحظات قد تشيع فى نفسه الرضا والسرور ، فكنت أقرأ فى ملامحك معانى الرفض والضيق ثم فى النهاية كنت تأتى معى بغير حماس أو رغبة صادقة .

انا لا ألومك مطلقا يا بنى ، واظننى انهم شعورك . ولكن ثمة حقائق كثيرة أود ان تعرفها لمصلحتك ومصلحتى ؟ كذلك لمصلحته هو ، ذلك الرجل الذى يرقد فى الصندوق والذى شيعناه منذ قليل ومعك عمك فاشيه حتى المقابر .

وليس مجرد الشعور بالخرج هو الذى منعى من ان اصارحك بها شفاها بنفسى ، فقد رأيت ان الحكمة تقتضى ان اترث بعض الوقت قبل ان افاجئك بها ، « ولا ادري متى يطول انتظارك وانتظارى ! » ، ومن ثم رأيت ان الأفضل ان اكتب كل ما فى قلبى بين هذه السطور ، وستبقى مكانها حتى تقرأها وقد أصبحت زوجا وأبا وتتخذ بنفسك قراراتك دون اى تدخل او تأثير متحملا كل التبعات والمسئوليات .

اذن ، فمن الجائز ان يقرأ جان بول - ابن السادسة عشرة هذه الكلمات ، كذلك من المحتمل جدا ان يقرأها نفس الشخص وقتها هذا رجلا رجلا من جليل المكانة ، وخط الشيب شعره ، مهيب الطلعة فى



الثلاثين أو الأربعين من عمره ، أو ربما في مثل سنى - ازداد بالحياة خبرة وبتصرفات الزمن علما ، سآتركها لك لتقرأها بعد وفاتى ، ولا أظن أنك ستنتظر طويلا ، فلن أبلغ أبدا ما وصلت إليه أمى العجوز التى عاشت احدى وثمانين سنة أو أبى الشيخ الذى مكث حتى السابعة والسبعين .

لا تبتئس ؛ فأنا لا أحاول استدرار عاطفتك ، فالمسوت حق ، ونحن آل فرسوا لانخشاه أبدا ، بل على النقيض اننى ابتسم حينما اتخيلك فى مثل عمرى ، تتحمل الهموم وتفكر فى ابنك الذى سيرث اسمك ، وفيما عساك أن تحكم به على أيبك وجدك .

\*\*\*

ولا تدهش اذا بدأت حديثى معك عن الحاضر ، قبل ان اغوص بك فى أعماق الماضى وهو لب الموضوع ، فاذا كنت تسأم ذلك لأن هذا الحاضر هو الذى تعيش فيه ، وتعتقد - كما أعتقد أنا - أنك تعرفه كما تعرف ما فى راحة يدك - فانه سوف يلقى شعاعا من نور على ذلك القديم ، فيجعلك أصدق حكما وأصوب فهما .

\*\*\*

ان عائلتك لتتألف اليوم منك ووالدتك وشقيقتى آرليت وزوجها فاشيه ، وقبل شهر ستة كان هناك أيضا جدتك وجدك ، واكبر الظن أن كلا منهما قد ترك فى نفسك آثرا يختلف عن الآخرين ، وكان بوى ان أعرف رايك فى كل فرد منا : فى جدك ، فى أمك ، أو فى أنا شخصيا ، واى فكرة يا ترى قد كونتها عنى كما قرانى ويرانى الناس . . ثم بعد ان أقص عليك وقائع هذه القصة ؛ ولقد كانت اسرتى أقل من اسرتك عددا ، لم تزد قط على أبى وأمى وشقيقتى ، ثم بعض الأقارب منهم أحياء انقطعت صلاتهم بنا أو اموات تحت الثرى فى الرموس !

ولست أدرى تماما متى اكتشفت حقيقتى فى تلك المجموعة ، فاذا بى لست الا قطعة من محرك ضخيم يدور باستمرار على من الأجيال والسنين ، غصنا رقيعا فى شجرة ضخمة تمتد جذورها فى الأعماق ثابتة راسخة ، تذى غصونها بتغير الفصول ، ولا تلبث



حتى تثبت لها براعم جديدة تأخذ دورها الجديد فى الحياة ! وهكذا  
يخلف الأبناء الآباء والأجداد وتبقى الأسرة العريقة على مر الزمان  
ولا جديد تحت الشمس الا الأسماء والوجوه ، وهكذا أيضا كان  
جدك ، وقبله أبوه ، ثم أنا وانت ، وابتاؤك من بعدك الذين سينجبون  
كك حفدة والمحرك الضخم يدور مادارت الدنيا حول نفسها !

والآباء لا يعيشون الا من أجل أبنائهم . .  
وأعتقد أن عينى تفتحتا على تلك الحقيقة وأنا فى العشرين من  
عمرى ، فى وقت يعاصر تلك الأحداث الهامة التى سوف أروىها لك  
فيما بعد . .

ولعلك قد أنصت مذهولا لتلك المناقشة الحادة التى دارت بينى  
وبين فاشيه زوج عمك ليلة وفاة جدك ، وكنت أرمقك فى انتباه  
لأعرف مدى ذلك فى نفسك ، وفى أى جانب منا تقف ؟ ولكنك  
اكتفيت بالصمت .

فقد كان جدك - ومنذ بداية هذا القرن - منكرا لكل دين  
سماوى وكل الناس يعرفون عنه ذلك . مكتفيا بالانتماء الى أحد  
المحافل الماسونية ، ولذلك لم أر كاهنا أو قسا يدخل دارنا قط ،  
ولم أتلق فى طفولتى أو صباى حرفا من أى كتاب مقدس وماوطئت  
قدمى عتبة أى معبد أو كنيسة ، وكذلك نشأت أنت ، وفى الوقت  
نفسه لا أذكر أننى سمعت قط أحدا فى بيتنا يتحدث أو يتناقش  
فى الدين أو يهاجم أحدا فى معتقداته .

وكانت جدتك كذلك أيضا حتى قبل العام الأخير من وفاتها .  
اذ فوجئنا جميعا وقد أصبحت كاثوليكية متعصبة ، وأوصت فى  
الحاف شديد أن يقام لجثمانها بعد وفاتها طقوس دينية كاملة . .  
ولم تكن أنت موجودا لترى غضبة « فاشيه » الكبرى ، حينما  
لاحظ أنهم يعدون إحدى غرف القصر فى « لوفيسينيه » لبيت  
فيها جثمان جدتك بين الصلبان والشموع ، اذ لم يكن فى البيت  
غرف معدة لذلك ، فثارت ثورته لما شاهد أمى راقدة مغمضة  
العينين ملثمة الفكين تطبق أصابها المتخشبة على المسبحة وفوق  
صدرها الصليب ، فصاح محتجا رافعا يده فى وجه أبى مهددا :  
- أو سمحت للقس بأن يطأ عتبة هذا البيت ؟



ولقد ارتج على جدك ، وامتقع لونه وهو الذى كان برقم بلوغة  
السابعة والسبعين ما يزال مشدود القامة مرفوع الرأس .  
ارتج عليه ولم يجد جوابا .

فنظر نحوى فى حيرة كأنه يستلهم المعونة ، فواجهت قاشية  
وأجبتة فى حزم :

— هذا ما أوصت به أمى قبل وفاتها ، ولا بد لأبى أن يحقق لها  
رغبتها الأخيرة !

وزار فاشيه كالأسد الجزع :

— الا يدرك هو انه بذلك التصرف يجعلنا أضحوكة بين الناس؟  
« ولم يكن هو الا أبى » . .

وكان فاشيه ما يزال هو ذلك الشاب الأصفر النحيل الذى  
أخطب شقيقتى فى أحد الأيام ، لم يتغير شيء فى شكله أو وزنه  
فدهما واحدا برغم مرور الشهور والأعوام ، وكان فى ذلك الوقت  
رئيسا للكتبة فى مقاطعة « شارنتى » التى كان جدك حاكما عامالها،  
بيد انى سأعود اليك مرة أخرى . . أما الآن فهو من الأعلام  
المشهورين ممن يشار اليهم بالبنان ، ويحتل مركزا رفيعا أكسبه  
ثقة فى النفس وعنادا فى الطبع ربما وصل الى حد القحة ! يكاد من  
ينظر اليه وهو يتحدث بتلك اللهجة ليلة وفاة أمى يظن أن اسرقتنا  
لا تتكون الا منه فقط ، وكأنه صاحب الحق وحده ، فى التحدث  
بلسانها والتصرف فى شئوننا وانه المسئول عن الحفاظ على  
إكرامتها وهيبتها !

— « أما كفاكم ما فعلتم ، كلكم للاساءة الى سمعتى واسمى؟ » .

ولقد كرر — بعد ذلك بستة شهور — تلك العبارة أمامك :

إقظبت جبينك دهشة مما جعلنى مضطرا لان اذكر ما حدث فى  
المررة الأولى ، ولا بد أنك فكرت طويلا فى معناها ، ما لم يكن هو  
أو شقيقتى ارليت أوهما معا قد ذكرا لك شيئا دون علمى .

ولم يتمكن برغم عناده ، من الحيلولة دون حضور شقيقتى

للصلاة على جثمان أمها فى الكنيسة ، لكنه ظل جالسا فى سيارته  
فى الخارج وأمام الناس على قارعة الطريق ! .

ولقد تكرر ذلك المشهد بعد وفاة أبى ، ولكنى تحملت وحدي



المسئولية كاملة رغم ان ابى لم يطلب منى قط ان تقام له جنازة دينية ، فلم يحدث بيننا خلال تلك الشهور القليلة او طوال حياتى اى حديث فى الدين او الفلسفة السياسية .

كان يعيش فى الفترة من يناير حتى اكتوبر وحيدا فى ( لوفيسينيه ) ، تقوم بخدمته عجوز تحضر فى الصباح لتعد له طعامه وفرشه ، ثم تنصرف الى بيتها وزوجها كل مساء .

اتراك تدرك معنى الفراغ والوحدة لرجل مسن فى بيت كبير متعدد الحجرات ، وكان فى وقت ما يشغل منصبا خطيرا ترمقه الأبصار وتنحنى له الهامات وترمقه العيون فى اجلال واحترام ؟ ولعلك لم تتأثر بوفاة ذلك الرجل كما لم تتأثر بوفاة زوجته فى اثناء اشتغالك بامتحان الشهادة الثانوية ، لانك كنت قليل الاختلاط بهما ، والزيارات النادرة التى كنت تصحبني فيها لرؤية جدك الشيخ كانت تسبب لك صداعا ومللا : فالقصر فى ذاته لم يعد يلائم جيلك الحاضر ، والذكريات التى اعتدت أن أجعلها موضوع حديثي مع جدك فى حضورك لم تكن تثيرك او تهملك ، ثم انه قلما كان يوجه اليك خطابا ، وربما تعجبت من ذلك وساءك الا يعبرك انتباها ، لكنه كان يختلس النظر اليك بطرف عينه ، ثم ينظر نحوى ، فهل خطر ببالك ماذا كان يعنيه بتلك النظرات ؟ ومع ذلك فقد كان من واجبي أن أجعله يراك ، وكنت أعلم انه يشعر بالسرور العميق لذلك ، وبعد فترة كنت أنظر فى ساعتى واقول لك مموها :

- اما قلت لى انك ستقابل بعض اصدقائك فى الخامسة ؟ ولم اكن اعرف شيئا عن اصدقائك او مواعيدك - وليس ذلك عتابا - فكنت تقف خجلا مستأذنا فى الانصراف وتمسك يدك فى ارتباك قائلا :

- الى اللقاء يا جدى .

وكان يجيبك كما اعتاد أن يجيبني وكما افعل معك الآن :

- الى اللقاء يا ولدى .

والقبلات لا تعرفها أسرة لافرنسوا حتى فى طفولتى كنت اطيع

لكارها شبح قبلة على خد ابى وامى ثم انصرف مستاء .



وكنا نرقبك وانت تنصرف ولعلك توهمت انى اعجسل فى  
اتصرفك لتخلى لى المكان لتتبادل حديثا لا تحب ان تسمعه ولكنك  
تخطيء فى ذلك ، فالذى كان يحدث بينى وبين ابنى هو الشىء الذى  
يحدث بيننا - حين ادخل غرفتك واجلس على طرف فراشك  
مفكرا . هكذا اعتدنا ان نجلس معا بين الظلال وكل منا غارق فى  
افكاره ، وحين نتعب من طول الصمت يقطعه احدنا فيتحدث عن  
كتاب او حادث ما او عن شخص يعرفه كلانا او عن الدواء الذى  
كان ابنى - خلال شهره الاخيرة - يتناول منه انواعا كثيرة .  
بيد اننا لم نتحدث عن جدتك ، او عن « لاروشيل » او من اقام  
فيها من الناس ، او ما وقع من الحوادث فى عام ١٩٢٨ .

ولعلك تظن ان حيننا من الدهر قد انقضى منذ ذلك الوقت ،  
فانت نفسك لم تظهر فى الوجود الا عام ١٩٤٠ وهو عام من المؤكد  
انه قسم التاريخ قسمين .  
ولكن يخيل الى ان تلك السبعة قد انتهت بالامس فقط ،  
فالسنوات تمضى سراعا حتى لارتاب فى انى حقيقة قد بلغت  
الثامنة والأربعين من عمري ، وفى ان من واجبى - سواء رضيت ام  
ايبت - ان ابذل التضحيات التى بذلها ابنى نحوى .

وبعد فمن يدري ؟ ربما شاءت المقادير ايضا ان أشهد نهايتى  
فى ذلك القصر القديم فى « لوفيسينه » لولا اصرار شقيقتى  
وزوجها - لافتقارهما الدائم للمال - على بيعه .  
لا تنزعج فأنا احس ما يدور ببالك ، ولست حزينا على فقدته ،  
بل ما اردت ان أشير اليه انما هو كناية عن رغبتى فى ان أقول لك:  
ربما اضطررت يا ولدى يوما ما الى ان تجذب ابنك الصغير من يده  
ليزور اباك المتقاعد الذى اشتد به الهرم وهو كاره لزيارتى !  
ابتسم ايها الصغير ، واقسم لك ان حديثى اليك لن يكون بعدئذ  
كثيبا او حزينا !.

ولكن ينبغى اولا ان انتهى من موضوع الوفاة والجنائز ، ولست  
أجد تفسيراً لما يعتمل فى نفسى من القلق بخصوصها ، حقا كان ابنى  
ينكر الاديان جميعها ، انحدر من أسرة عريقة ريفية وادى للدولة  
بخدمات جليلة ، فهل كان من البنائين الأحرار ، لست واثقا من



ذلك . ولولا عمك فاشبه ما خطر ببالي شيء من ذلك ، فقد اشار  
لى مؤكدا انه كان يشغل مركزا هاما فى الطائفة الماسونية ، وان  
المحفل قد ساعده عام ١٩٢٨ وخفف من هول المصيبة التى وقعت  
آن ذاك .

واعود فأكرر انه لم يصارحنى حتى وفاته بأية رغبة اخيرة  
يطلب منى تحقيقها .

واذا كنت قد ادخلت جثمانه الى الكنيسة فذلك لانى توهمت  
انه كان يتمنى ذلك ويرغب فيه من صميم قلبه وان لم يظهره على  
لسانه ، اما ان كنت مخطئا فى ظنى فأنا التمس منه الصفح  
والمعذرة .

هذا عن جدك ، أما عن جدتك فلا أجد فى نفسى الشجاعة  
لأسألك عما تذكره فى طفولتك عنها ، ولم يقع بصرك عليها الا وهى  
جثة بطيئة الحركة متورمة الجسم ، هدها مرض الاستسقاء ، وملا  
ساقها بالماء وفى عينيها نظرة غريبة بلهاء!

لم تأت لرؤيتك عند ولادتك ، فقد كانت تلازم البيت لمرضها ،  
فحملناك اليها بعد شهر من ولادتك حتى تراك . . وكان فى يوم  
أحد من أبريل ، طقسه جميل رائع وشمسه دافئة ساطعة ، وكنت  
قد وصلت ومعى أمك توا من باريس فهبطنا المحطة الجميلة  
واخرقنا حديقة قصر ماجالى اليانعة الزهور والتى تصدح فيها  
الطيور ، ولكننا ما كدنا ندلف الى الداخل ، داخل تلك الغرفة الكئيبة  
المظلمة ذات السقف المنخفض ، والتى اعتاد أبواى الجلوس فيها  
بجوار المدفأة العتيقة التى تتصاعد رائحة دخانها فيزهق الأنفاس—  
حتى شعرنا بأننا تركنا الحياة وراءنا فى الحديقة ، وأنا نطأ عتبة  
عالم آخر ! مقبرة عفنة يخيم عليها شبح الموت الرهيب !  
وقال أبى مخاطبا امى التى كانت تجلس فى مقعد كبير ذى  
ذراعين :

— هذا هو حفيدك جان بول !

فنظرت نحوى تحدجنى بعينين جامدتين ، ولم يشرق وجهها  
حتى بشبح ابتسامة ! ومدت ذراعيها فى صمت ، وفى تلك اللحظة  
لمحت الفرع والتردد واضحا على أمك التى نظرت نحوى مستفسرة .

وامسكت انا انفاسى خشية ان تفلت كتلة اللحم الصغيرة التى  
هى انت ، من بين يديها البطيئتى الحركة بسبب اعيائها وضعفها .  
ولكن امك كانت تفكر بطريقة اخرى ، لعلى كنت اشاركها فيها  
بنصيب ، فقد خشينا ان تحل بك اللعنة يا ولدى ونحن نسلمك  
يا من تمثل الامل والمستقبل الى يد الفناء والشيخوخة والهرم ! .  
ومعذرة اذا اعترفت لك بأنه قد ضايقنى حين ذاك ان ارى تلك  
السيدة التى كانت سبب وجودى، وارضعتنى لبن ثديها وحملتنى  
بين ذراعيها . . تنحنى فوق وجهك الوردى الصغير ، وفوق شفطيك  
الجميلتين الطاهرتين اللتين لم يلمسهما انسان حتى يلوثهما بانفاسه  
الحارة !

ثم لم تعرك بعد ذلك اهتماما ، وعندما تعلمت المشى وكنت  
تدرج مع بعض الأطفال فى الحديقة فتعثر وتسقط . كنت تسبب  
لها رعبا شديدا كلما صرخت او بكيت بصوت مرتفع ، فقد كانت  
اقل الاصوات تسبب لها خوفا وانزعاجا .  
وكان ابي يكبرها بأربعة اعوام فقط ، فارق بسبب ريمالا يلحظه  
من فى عمره ، ولا يلحظه اى انسان بين رجل وزوجته بلفسا هذا  
القدر من الشيخوخة .

ولا بد انه من بين تلك الذكريات المحفورة فى ذهنك عن  
«لوفيسينيه» ، صورة جدتك وهى فى مقعدها الكبير بجوار المدفأة  
مكانها الذى لم يتغير قط ، وربما عجبت فى نفسك من انها لاتؤدى  
اى عمل فى الدار ، حتى غزل الصوف او التطريز الذى اعتادت كل  
امراة ان تشغل نفسها به ، ولم تكن تقرا ايضا وليس فى الدار  
مدياع ، فكانت تجلس ساكنة فى مقعدها عيناها مشدودتان الى  
الامام ، لاتنبس بأى حرف فاذا ما سقطت احدى الجمسرات  
المشتعلة من المدفأة فوق السجادة لم تكلف نفسها عناء الانحناء  
والتقاطها !

واذكر ان ابي كان - ذات يوم - خارج البيت فى مهمة عاجلة  
وكانت مدام برين قد انتهت من عملها وانصرفت لمنزلها ، وحين  
عاد وجد قطعة خشبٍ مشتعلة سقطت من المدفأة فأحرقت دائرة



متسعة من خشب الأرض، هذا وأمي جالسة ساكنة تنظر في بلاهة  
كان الأمر لا يعنيتها!

اتكره أن تكون مثل هذه العجوز المسكينة جدتك؟

وما قولك لو علمت أنها كانت في شبابها مشال الحيسوية  
والنشاط تفضي معظم عطلاتها ونزهاتها في الحديقة التي كنت تلعب  
أفيها في صباك، وقت ذاك كانت جدتك إحدى بطلات الكروكيت،  
تتردد ضحكاتها المرحية بين أرجاء القصر، لقد ذكرتني أنت بذلك  
حينما عثرت منذ أيام على مضرب صديء من الحديد في الحديقة،  
وسألتني ماذا يكون؟

ولم يكن قصر ماجالي - كما تراه الآن كئيبا حزينا مظلما،  
ولقد شاهدته بنفسى في طفولتى، كان يا ولدى أجمل بيوت  
لوفيسينيه، تتلأ أنواره في الليل ويقصده صفوة القوم وعظماؤهم  
في كل وقت، وتزخر حديقته على الدوام بالأطفال يلعبون  
ويتأرجحون ويمرحون!

وهكذا حينما كانت جدتك تتخذ مكانها على ذلك المقعد بجوار  
المدفأة وتجلس ساكنة: كانت تحلم بذلك الماضي البعيد وتنصت في  
لذة واهتمام لأصوات مرح الطفولة البريء الذي تتخيله يملا  
أسماعها، ولم يحاول أبى أن يوقظها من أحلامها أو يعيدها لعالم  
الحقيقة والواقع، مكتفيا بأن يرعاها ويهتم بتمريرها والعناية بها  
حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة في هدوء وطمأنينة.

ومنذ عامين، وكان مسيو لانج الساكن في البيت المقابل لنا  
قد توفي وهو في المعاش منذ وقت طويل، واستأجر البيت  
عروسان حديثا الزواج، تشاجر معهما أبى بسبب ارتفاع صوت  
مذياعهما، وكانا يتركان النواقد مفتوحة على مصاريعها.

وكم كان أبى يتعذب حينما يأتى بعض أطفال الجيرة للعب الكرة  
في الفضاء أمام منزلنا، فكلما صاح أحدهم - والله يعلم أنهم كانوا  
دائما يصرخون مثلما كنت تفعل أنت أيام الأحاد - ترتعد أمتى وتنتفض  
أقزعا كما لو لدغها عقرب! حتى يضطر الى أن يخرج فيتحدث مع  
أكبرهم. ولست أعلم - على وجه اليقين - كيف دار الحديث بين  
الطفل والشيخ؟ بيد أنى أعتقد أن الأطفال جميعا كرهوا أبى وأمتى من

تلك اللحظة ، ولم يقهوا قط ان الشيخين يشدان الهدوء وهما يقضيان الايام الاخيرة من حياتهما ، كذلك لم يخطر ببال تلك العروس التي كانت تخطر دواما في الشرفات بثوبها القرمزى الحريري معجبة بشبابها وجمالها انها ستكون في احد الايام مثل جدتك !

وكثيرا ما كان الاطفال يزحفون كالهنود الحمر ويجذبون الجرس في عنف ثم يولون الأدبار ضاحكين مسرورين او بلقون القاذورات والأوساخ في صندوق البريد المعلق على الباب ! فهل شعر بأن وجوده أصبح غير مرغوب فيه بين أبناء هذا الجيل ، وان كل ما يحدث له ليس الا اشارة تنبئ بأن حياته قد آذنت بالنهاية ؟ .

وقبل أن يشل المرض تفكير امي ويقعدها عن الحركة كان يقوم ببعض الأعمال القضائية في مكتبه الذي لا يبعد كثيرا عن محطة « لوفيسينيه » فقد كان يحمل الدكتوراه في القانون ويجد سعادة كبيرة في العمل والسهر على القضايا برغم بلوغه تلك السن الكبيرة ، ويتردد كل مساء على مقهى كولوني . وهو مشرب من الطراز القديم له موائد ومفارش ومرايا على الجدران على النمط الأمريكى . وهناك يجلس مع بعض رفاقه من الشيوخ ويلعب دورا أو دورين من « البريدج » فاذا امتد شوط اللعب قليلا بدأ ينظر في قلق الى ساعة الحائط ، كان يعد الوقت بالثواني حتى لا يتخلف أبدا عن العودة في الساعة تماما مهما كانت الظروف ، ففي تلك اللحظة تنصرف مدام برين الى بيتها بعد ان تعد المائدة وتضع الطعام فى الفرن ليظل ساخنا .

وكان هو الذى يقدم الطعام ، ثم يغسل الصحون أيضا ، وتبقى له بعد ذلك ساعة ليقرأ فيها الصحف .

هل تشعر بالسأم حينما أحدثك بكل ذلك ؟ فالاولاد فى سنك يتلهفون على كل ما كان جميلا نظيفا صافيا فى عمر الربيع ، ويمتعون من كل قديم تقادم عليه الزمن واكل الدهر عليه وشربا يلربما تمنوا زوال ذلك القذى من امام أعينهم ! .

ولكن لا تنس ان ذلك الشيخ المتهاك لم يكن غير جدك ، تجرى



دماؤه فى عروقك وتبررت بعض ملامحه وصفاته فى منجياك ، أبيت  
أم رضيت !

ولا تحسبنى اقول ذلك مدافعا عن أبى ، أو لاخفف من مساوىء  
الشيخوخة التى تهددنى أنا أيضا عما قريب ، فلسوف تزداد عمقا  
فى الفهم حينما أصل فى قصتى الى ما حدث فى سنة ١٩٢٨ التى  
هى أصل كل بلاء ، وسبب كل شىء سمعته فى ( لوفيسينيه ) أو  
فى بيتنا فى ميدان ماكماهون .

ومنذ خمسة أعوام - حينما ازدادت حالة أمى سوءا - كف  
أبى عن الذهاب الى مكتب الحمامة ، كذلك توقف عن السهر فى  
مقهى كولونى ، واكتفى بأن يفيب ساعة أو بعض الساعة لشراء  
الحاجات من السوق ، ومثلها بعد الغروب يتمشى على قدميه حتى  
لا يمرض أو تيبس مفاصله اذا كف عن الرياضة .

وظل كذلك . حتى بعد وفاة أمى . لم يغير من عاداته قط ،  
ولم يمرض قط ، بل لم يشعر طيلة حياته بحاجته الى زيارة أى  
طبيب ، كان دائما مرفوع الرأس تشيظ الحركة مشدود القامة  
كابن العشرين ، يعنى بشبابه وأناقته كأنه عريس ليلة الزفاف !  
وحينما سألت الطبيب فى ( لوفيسينيه ) عن سبب وفاته  
- فقد وجدناه ذات مساء بمفرده منبطحا على وجهه فوق  
السجادة بجانب فراشه حيث سقط - هز الطبيب كتفيه ونظر الى  
ملياثم قال : قتله الحزن !

وكان من عاداته أن يدفن الأحزان فى قلبه فلا تظهر على وجهه،  
ولم تدمع عيناه حينما ودع شريكة حياته ، ولكنه أمسى أكثر رقة  
وأشد عطفًا .

ومما عجبنا له أنه تبنى هريرة صغيرة عثر عليها ضالة فى  
الحديقة ذات صباح تموء جوعا وترتعد بردا فحملها فى رفق  
واشترى لها « بزازة » صغيرة ملاءها لبنا ومضى يرضعها ويضمها  
الى صدره فى حب وحنان حتى اشتد عودها ، وكانت هذه القطعة  
تسليته الوحيدة حتى قضى نحبه ! .

بيد أن ذلك كله ربما لا يفسر سبب كراهيتى لعمك فاشيه أو  
عدم رضاي عن عمك آرليت التى كانت تنتهج سياسة عدم

الانحياز الا انها كانت تؤيد زوجها فى معارضته اجراء الطقوس الدينية لأبى .

أو ربما كان الفضل لزهرة الجرانيوم فى اتخاذى ذلك القرار المفاجىء نحو أبى ! انك لتعرف تلك الزهرة الرائعة التى طالما تناولناها بالحديث ونحن على مائدة الطعام ، والتى كانت تبدو وحيدة فريدة فى أصيصها الصغير الجميل فى النافذة المواجهة لنا فى ميدان ماكماهون ، وكانت لعانس عجوز استأجرت الغرفة الخشبية العليا فوق السطح ، ومع ان جميع سكان الطوابق الأخرى من الأثرياء ذوى الأسماء المعروفة ، لم تكن نعرف من هى ؟ أو من أين أنت ؟ أو كيف تعيش . سوى ما أخبرتنا به خادمتنا «اميلى» ذات يوم من أنها تدعى الآنسة أوغسطين .

ولعل مما استرعى انظارنا الى تلك الزهرة ، انها كانت تطل وحدها على الميدان ، فنوافذ الطوابق والدور جميعها خالية من الزهور ، وكانت تظل فى مكانها أيام الصيف ليلا ونهارا ، ولكن ما تكاد ليالى الشتاء الباردة تبشر بالقدوم حتى تخاف عليها الصقيع وترفعها قبيل الغروب ، ثم تعود فتضسها فى شمس الصباح الدافئة ، وكنا نقول : انظروا ! هذه زهرة الآنسة أوغسطين قد عادت الى النافذة! .

ومن تلك اللحظة شعرت بأن ثمة رابطة خفية بين زهرة أوغسطين وهرة أبى ! .

فكل مخلوق منا يشعر فى وقت ما بحاجته الماسة الشديدة الى شىء يتشبه به فى شيخوخته ويؤنس وحدته ولقد اختارت بجدتى فى الدين ملاذا يؤنس وحدتها فى آخر أيامها حتى القبر . ولا أخفى عنك اننى ليلة الصلاة على الجثمان فى الكنيسة لقد سحرت بما شاهدته عيناي بين الظلال : المنبر والحواجز الخشبية اللامعة ، وأضواء الشموع ورائحة البخور المعطر وثياب المنشدین ، وصوت الترتيل الذى كان يتردد صداه تحت القبة العالية المرتفعة المزينة بالنقوش مختلطا بنغمات الأرغن ودقات الدفوف النحاسية ، حتى التماثيل التى تصور القديسين تبعث فى نفسى الحائرة راحة لم أشعر بمثلها من قبل .

وشينا فشيئا اختلط كل شىء فى راسى : الهرة وزهرة



الجيرانيوم ؟ وصوت الأرغن ورائحة البخور والترانيل ، ومنظر  
القس المهيب ، بعباءته الكهنوتية ، وهو يغمر أصابعه من الماء  
المقدس .

واختلست نظرة الى ابي في تلك اللحظة فوجدته مطرقا براسه  
في خشوع ، وكأنه يريد أن يخفى عن الناس دمة وحيدة تترقرق  
في مقلتيه ، أو ربما خيل الى ذلك !

## الفصل الثاني

قرات ذات يوم عبارة في كتاب ما ، راقنتي وتفكرت  
الى قلبي ، ولست اذكر تماما : هل كان ذلك في قصة قصيرة  
أو رواية كبيرة ، برغم اني لست مولعا بقراءة الكثير من  
ذلك النوع من الأدب ؟ وكانت بقدر ما تعيها ذاكرتي « ان  
اهم لحظة في حياة الانسان هي التي يموت فيها ابوه ! » .

واستطيع أن اراهن من يشاء بأى شيء دون أن اكون مجازفا  
على ان هذا الكاتب رجل في مثل سنى أو اكبر قليلا ، فالناس  
المتقاربون في الأعمار يعرف بعضهم بعضا من افكارهم المشتركة ،  
ولا أخفى عنك اني تدبرت طويلا فيما تعنيه تلك العبارة حتى وضع  
لى بجلاء : لماذا كانت وفاة رب الأسرة حدثا جليلا بالنسبة لحياة  
الابن ؟ ذلك لأنه يجد نفسه وقد أضحي بين عشية وضحاها رجلا  
بمعنى الكلمة يتحمل كل تبعات الحياة ومسئوليته ! .

\*\*\*

من لحظات وجيزة ، رايت الدهشة بادية عليك حينما دخلت  
عزفتي ووجدتني جالسا الى مكتبي اسطر هذه الكلمات وانا في  
ثوب العشاء ، فقد تسمرت قدماك بالباب وانت تلقي نظرة خاطفة  
الى ما امامي من الأوراق .

- أوه ! . معذرة لم أعرف أنك تعمل .

وقد أجبتك :

- لا ، لست مشغولا .

- انما كنت أبحث عن علبة سجائر .

وكنتم أعلم أنك تستضيف صديقا في غرفتك ؟ فقد رأيت

حينما دخلت عليك غرفتك منذ ساعة ، فتى اسمر مليح الوجه كشا  
الشعر له عينان سوداوان جميلتان ، وكان يجلس بجوارك وبين  
يديه كراسية ، وما كاد يرانى حتى وثب واقفا فى احترام ، وقدمته  
الى قائلا : صديقى جورج زاىو .

ولقد سألته :

- افى « اللبسيه كارنو » ايضا ؟

فاجابنى فى صوت موسيقى :

- اننى اتھيا لدخول امتحان البكالوريا مثل ابنك .

ثم اردف باسما :

- وان لم اكن لسوء الحظ فى ذكائه والمعيتة !

وما كنت قد سمعت بعد ان رفاقك يقدرون فيك ذكاءك ، وربما  
كانوا على حق ، فقد بلغنى ان اساتذتك يرون فيك معالم النبوغ  
والرغبة الجادة فى الدرس والتحصيل ، ومع كل ذلك فانى - وانا  
ابوك - لا اعرف الكثير عنك !

وحتى اصداقاؤك لا اعلم عنهم شيئا ، ماعدا النادر جدا ممن  
افاجئته لديك من قبيل المصادفات مثل جورج زاىو ، وكنت المسح  
معالم اللففة على وجهك والرغبة الشديدة فى انصرافى وعدم اطالة  
مكوئى معكما .

واستطرد زاىو يقسول فى ادب جم حين رآنى ارتدى ثوب  
العشاء :

- معذرة لحضورى فى هذا الموعد غير المناسب ، كنت ابحث  
عن ورقة فيها بعض تمارين الجبر وانا فى سبيل مراجعة هذه المادة  
فى بيتنا فلم اجدها ولما كان صديقى جان بول اقرب زملائى الينا .  
- اتسكن قريبا منا ؟

واتسعت ابتسامته وهو يجيب :

- بل فى المنزل الملاصق لكم تماما .

وشعرت كأنما ثمة ما يربطنى بهذا الفتى ، ليس اسمه فحسب  
ولا محياه الوسيم الذى كان يذكرنى بشيء جميل حبيب الى نفسى  
وانما هو احساس غريب خامرنى بانى اعرفه منذ وقت طويل .  
وحتى لا اسبب لك مزيدا من الضيق انصرفت وانا اقول :  
- استمرا فى دروسكما .



ثم عدت الى غرفة الجلوس حيث كانت أمك تعد كؤوس  
الشراب للضيوف ، ولم يكن من عادتك ان يحضر سهراتنا ،  
ولكنك كنت تحضرها كارها بناء على اصرار أمك ، فتمكث بيننا  
دقيقة او دقيقتين ثم تفر هاربا الى المطبخ ، وعندما أردت ان  
اهدبك سترة للعشاء بمناسبة عيد ميلادك السادس عشر قلت لك:  
- لا بد للانسان ان يتعود حضور العشاء بستره خاصة وهو  
فى السادسة عشرة ، والا فلن يعرف كيف يرتديها اذا تقدم به  
العمر !

واجبتنى بأنه ما زال فى الوقت متسع وانك لا تميل الى  
تقييد نفسك بمثل تلك الشكليات ، وكان الحق معك يا ولدى ؟  
فأنا نفسى لا افعل ذلك الا مضطرا ، ولست أحب تلك السهرات  
التي أدمنت أمك عليها ، فهى اذا لم تقض المساء فى السينما  
دعت لدارنا بعض مشاهير القوم مهما كان سبب شهرتهم !

وكان قد حضر لزيارتنا هذا المساء - آل ترمبلى - وميلدرد  
وبيتر هوجان اللذان كانا يدعواننا بأسمائنا المجردة على الطريقة  
الامريكية ، وكذا النائب لانير الذى يعتبر البيت بيته ، وزوجته  
وابنته ميريل .

وحينما رأتنى أمك سألتنى - من أجل ميريل بلا شك -

- هل بول هناك ؟

- معه صديق يستذكران دروسهما معا ، ولقد تركتهما

لتوى غارقين لاذانها فى الجبر !

وبياتريس لانير من اعز صديقات والدتك وخاصة بعد ان  
أمسى زوجها المحامى لانير عضوا فى البرلمان عقب الانتخابات  
الآخيرة ، وكان واضحا لكل ذى عينين ان ميريل تنصب شباكها  
حولك ، وأنت عنها غافل .

وحتى اجعلهم يتركونك وشأنك أردفت :

- لم اكن اعلم ان له صديقا يقيم فى البيت الملاصق لنا ،

بل وفى عامه الدراسى نفسه ! لقد رأيت فوجدته فى مهبلى

زجيلا اسمه جورج زاو .

ورأيت النائب يتبادل نظرة ذات معنى هو وزوجته التي  
قالت تسأل والدتك :

- أتعرفينه يا اليس ؟ .

- لم أسمع به من قبل ، ولا أعلم هل بنات اليوم يفعلن ذلك  
أيضا ؟ ولكن جان بول لم يحدثنى قط عن اصدقائه أو حياته  
الخاصة .

- أنت تعرفين أمه على أية حال « وذكرت اسم احدى ممثلات  
باريس المشهورات » .

وحينما حضرت الى غرفتى تسأل عن صندوق السيجائر  
سألتك بلا اكتراث :

- أتعرف من تكون أمه ؟ .

فأجبتنى ببساطة : نعم ، طبعا .

ولكنك لا تعرف أى حياة مملوءة بالمناقضات يعيشها  
صديقك ؟ .

فالملايين من الناس فى كل أرجاء الدنيا يعرفون أمه ويعجبون  
برشاقة قوامها وملاحة وجهها ، كما يعجبون بفنها الرائع ، وأنا  
نفسى - حين كنت اصادفها فى نظيرى بالشانزليزيه ، تنهادى  
كالغزال وعلى كتفيها معطف من الفراء الثمين زادها فتنه وجمالا  
والناس يتابعونها بأنظارهم ، والشباب والفتيات من طلبة المدارس  
يتدافعون نحوها ملتهمسين أن توقع لهم بامضائها على كراسياتهم -  
لا اخفى عليك أنى كنت اشعر بعنقى تلتوى للخلف بالرغم عنى لاشبع  
عينى من النظر الى وقارها وحسن هندامها .

ترى .. هل يكون أى انسان سعيدا بمثل هذه الأم ؟ .

واذا كانت حياة الناس ملكا لهم وحدهم ، يعيشون كما  
يحلو لهم ، فان حياة اهل الفن ملك لجماهير العشاق وملايين  
المعجبين يتعطشون لدس انوفهم فى كل صغيرة وكبيرة فى شئونهم  
الخاصة ، فالناس كلهم يعلمون انها لم تتزوج زواجا شرعيا الا  
منذ اثني عشر عاما فقط ، وكان صديقك جورج فى الخامسة من  
منى حياته ، ومع ذلك لم يستمر زواجها أكثر من عام .



وزأبو نفسه الذى ما يزال على قيد الحياة ، لا يستقر فى بلد واحد ، فهو بالأمس فى اليونان واليوم فى بناما وغدا فى الولايات المتحدة يباشر أعماله الكبيرة فى كل تلك الجهات ، وهو أيضا ممن يشار اليهم بالبنان فحياته العسامة والخاصة مثار اهتمام الجماهير والصحف .

وهو لا يرى ابنه الا مرة واحدة كل عام ، فى مدينة فيشى التى اعتاد أن يمضى فيها شهرا للاستشفاء فيمضى ابنه تلك الفترة معه .

ولست أعلم : هل يداوم على الاتصال بولده فى غير ذلك مستفسرا عن متاعبه وتقدمه فى دروسه ومشاركته فى مشاكله كما يفعل الآباء نحو أبنائهم ، أو يكتفى الابن بمتابعة ما تنشره الجرائد والمجلات المصورة عن تنقلات أبيه على ظهر يخوته الضخمة وسياراته الفخمة وخيوله التى تجرى فى ميسادين السباق أو مقامراته الفرامية مع النساء من كل لون وجنس ؟ .

وظل ضيوفنا يتحدثون ولعلمهم ما زالوا يتناولون أسرة زابو بالتجريح والتشريح .

وفى البداية سئلت زوجة الدكتور ترمبلى لتسترعى نظر السيدة لانير ، بأن ابنتها الشابة الصغيرة تنصت الى ذلك الحديث ، ولكن السيدة لانير قالت :

— لا أرى بأسا من أن نتحدث فى وجود ميريل ، وقد يكون لديها ما تضيفه الى معلوماتنا .

وعندئذ .. انسحبت لانفرد بنفسى .  
لم اكن أعادى مخلوقا وخاصة ضيوفنا .. أو أكره رؤيتهم .  
بيد أنى كنت أشعر بأن لا مكان لى بينهم ، فأتركهم لشأنهم وانطلق الى مكتبى .

\*\*\*

وحين كنت فى الثامنة من عمرك لابد أن أحد زملائك فى المدرسة قد سألك يوما ما :

— ما حرفة أبيك ؟ .

فنحن — وان لم تكن واسعى الثراء — يعلم جميع أصدقائك

التلاميذ والباعة وسكان الحي جميعاً الذين يعرفوننا ، اننا فى  
سعة من العيش .

فنحن نسكن فى أجمل أحياء باريس وأهمها على قيد امتار من  
قوس النصر ، وفى مواجعتنا يقيم رئيس الوزارة كما يجاورنا كبار  
السياسة ورجال الفكر والمال والسفراء .

ولدارنا - شأن جميع الدور فى ميدان ماكماهون - بوابة  
ضخمة من السنديان اللامع عليها مقابض نحاسية رائعة ، ومدخل  
متسع تغطيه السجاجيد الحمراء التى تمتد فوق درجاته الرخامية  
وغرف جميلة مشمسة فسيحة الأرجاء .

وعندنا الوصيصة اميلى التى لم تفارقنا منذ خمسة أعوام ،  
ثم الطباخة العجوز زوجة الرجل الذى يعمل فى الحرس الجمهورى .  
ثم لدينا سيارة لابأس بها شكلا وموضوعا ، وان لم تضاد فى  
ووعتها مئات السيارات التى تقف فى منحنى الميدان القريب  
من بيتنا .

وأخيرا ، وليس آخرا فان والدتك تضع فوق كتفها فراء ثميناً  
يساوى وحده ثروة طائلة ، بالإضافة الى ذلك المعطف الجميل  
الذى اشترته لها أيام زواجنا المبكر .

وكدت أنسى ان أذكرك بأننا نذهب كل صيف الى ساحل  
الاركاشون ، اما فى الشتاء فنقضى أعياد رأس السنة فى ملهى  
كبير . ثم نذهب للترحلق فوق جليد سويسرا .

ولا ريب فى ان جميع أقرانك فى الليسيه كارنو من أبناء  
الذوات وفى مستواك نفسه تقريبا ، فليس ثمة ماتخشاه من  
أسئلتهم الفضولية كما كان يحدث لك وانت فى المدرسة الابتدائية .

واكاد أقسم ان أحدا من أصدقائك الصغار قد سألك « ما حرفة  
أيك ؟ » وانك قد ترددت كثيرا قبل ان تسألنى :  
- من أين تحصل على المال يا أبى ؟ .

فلقد اعتدت ان ترانى اخرج فى الصباح حاملا حقيبة أوراقى  
ثم أعود فى الظهيرة للغداء ، وفى المساء أعتكف فى مكتبى واتناول  
عشائى وحيدا ، واذا ما أحدثت جلبة او رفعت صوتك وضعت



أمك سبابتها على شفيتها وتقول لك ؟

- اش ! لاتزعج أباك ، انه يعمل !

واذا ما بدا على ضيق او افلتت بشئ اعصابى فى اثناء الطعام

تقول أمك معتذرة :

- أبوك مرهق قليلا .

وأذكر انى أجبتك وقت ذاك باسمما بقولى :

- أحصل على المال كأى انسان بالعمل .

- وما عملك ؟

- اناخبر فى شركة التأمين .

ورأيتك تقطب جبينك الصغير فى حيرة ، لانك لم تشف

قضولك - فمن بين اقرانك ابناء لأطباء او قضاة او محامين . ومنهم

من هم اولاد أناس مفرطى الفنى لايعملون ، ومنهم من هم اقل ثراء ؟

او ربما فقراء عاملون فى المتاجر او المصانع ، ولكن ليس بينهم من

يعمل ابوه خبيرا فى شركة تأمين .

- وهل لك مكتب تعمل فيه ؟ وهل هو مكتب كبير ؟

وكان الوقت صيفا ، والنافذتان الكبيرتان مفتوحتان على

مصاريعهما وزهرة الانسة اوغسطين تبدو فى اتم رونقها وبهائها

فى الاصيلر الجميل على حرف نافذتها ، وكنت فى أحسن حالاتى

صفاء ، فأسعدنى أن أراك تهتم بى اخيرا ، واجبتك فى رضا وسرور :

- ان مكتبى فى أعظم المباني فى باريس وأضحخها بشوارع

لافيت ، شارع الذهب والمال حيث تتداول الأيدى بلايين الفرنكات

كل صباح ، وليس بفرنسا كلها شارع مثله ، وتملكه اكبر شركة

تأمين فى العالم .

وثق بأنى لم اقل ذلك غرورا ، ولكنها الحقيقة التى قد

تعرفها الآن بعد أن تجاوزت السادسة عشرة ومع ذلك فقد عدت

لسألنى :

- اتجلس خلف نافذة الصرافة ؟

- كلا .

- اتكتب طوال اليوم وتحل تمارين الحساب ؟

– تقريبا ، اننى أحسب احتمالات الحياة والأخطار ،  
وعندئذ نهرتك أمك فقالت : عسير عليك أن تفهم ذلك الآن ،  
استمر فى عشائك .

فأجبتها غاضبا : حسنا ، اننى مستمر ،  
ولم اکتف بذلك فقد أردت أن أشبع فضولك ، واخذتك معى  
مساء الأربعاء الى شارع لافيت ، ولاحظت عليك معالم الدهشة  
والرهبة وانت تدلف من بين الباب البرونزى الكبير الى الردهة  
العريضة الطويلة ذات الرخام الأسود اللامع ، وسألتنى مشيرا  
للحارسين ذوى الثياب الرسمية والزرائر الذهبية وهما يؤديان  
لى التحية :

– هل هما شرطيان ؟

– كلا ، بل هما حارسان .

– ولماذا يحملان مسدسين فى حزاميهما ؟

وحيثما حيائى كبير الخدم بالباب قلت :

– لماذا يعلق سلسلة فضية حول عنقه ؟

كانت تلك الفترة الوجيزة التى قضيتها معى وقتئذ من أجمل  
لحظات حياتى ، ولا تسل عن سعادتى وانا أريك المصعد الكهربى  
الذى يسع عشرين شخصا ، والمماشى الطويلة المكسوة بالسجاد  
السميك ، وعشرات الغرف ذات الأبواب المصنوعة من الخشب  
الثمين اللامع وعلى كل منها رقمها النحاسى ، كذلك شعرت  
بالسرور وانا أصعد بك الطابق الثالث من مؤسستنا الضخمة التى  
تعمل كأنها خلية النحل ، الى حيث غرفتى الخاصة وعلى بابها  
لافتة « ممنوع الدخول » فسألتنى فى دهشة :

– لماذا لايسمحون للناس بالدخول ؟

– عمل الخبير الحسابى لايتصل بالجمهور ، ولاينبغى ازعاجه .

– وما السبب ؟

– ذلك لأن عمله ذهنى شاق يحتاج للهدوء ، وايضا فى غاية

السرية .

وبدت عليك امارات الارتياح حينما دخلت غرفتى الواسعة  
الأنيقة ورايت مكتبى العريض وتليفوناته الثلاثة ويجواره الخزائن



الحديدية الضخمة ؟ والآلة الالكترونية الحاسبة ؟ ثم قرقة  
المساعدين المحاسبين وبجوارها غرفة الكتبة الذين يعملون تحت  
أمرتي ، والأرفف التي تغطي جدرانها حتى السقف والحافلة  
بالمجلدات والملفات .

ولم تأت بعد ذلك لزيارتي الا مرتين او ثلاث مرات في مرورك  
العابر . اما لتحمل لي رسالة من والدتك ، او لاتنا تواعدنا على  
اللقاء ، وكان آخرها منذ شهرين لاغير حين جئت في السادسة  
مساء لرافقك الى الحائك الذي يخيط لك ثيابك .

ومنذ ذلك اليوم لم تسألني عن طبيعة عملي ، ولعلك تكون قد  
وجدت وقت ذاك الاجابة التي اقنعتك ، او ربما تلقيت بين دروسك  
في ( الليسيه ) عمل الخبير الاكثواري في شركات التأمين .

وعلى اية حال ، فما اشك ان ابن الثامنة قد كون في رأسه  
صورة عن ابيه ، فأنا أشغل مكانا وسطا بين درجات السلم الاجتماعي  
أرفع شأننا من اولئك الموظفين الذين رأيتهم يعملون في مكاتبهم  
بالطوابق السفلى ، وأدنى قدرا من اولئك المديرين الذين يجلسون  
في مقاعد وثيرة تدور حول نفسها ويعبثون بسلاسل ساعاتهم  
الذهبية بين أصابعهم المزينة بالخواتم ذات الفصوص الضخمة ،  
ولهم غرف خاصة لاستقبال الزائرين وجلووسهم حتى يسمح لهم  
بالمثول بوساطة الحجاب على الابواب .

وباختصار أنت لم تمتليء بي زهوا وافتخارا ، كذلك لحسن  
الحظ لم تصدم في ابيك مما يجعلك تحنى رأسك بين اقراك  
ذلا وعارا .

وربما تخيلتني في رأسك الصغير رجلا معدوم المواهب والرغبة  
في المجد والطموح ، يهرب من المسئوليات والمغامرات ، فهل لي أن  
اسألك بدوري ؟ ماذا تمنى أن تكون بعد عشرة أو عشرين عاما  
للإمام ؟

انا لم احاول أن اسألك قط ، لعلمي ان الاجابة - ومن طفل  
أقوى سنك - لن تكون سهلة أو يسيرة المنال ، وامامك المستقبل  
بمازال عريضا حافلا بالأحداث والمفاجآت على الرغم من انه كثيرا

ماوجه اليك ضيوفنا ذلك السؤال ، والناس مفرمون بتوجيهه دائما  
لأطفال اصدقائهم على سبيل المداعبة : ماذا تحب ان تكون عندما  
تكبر يابنى ؟

ويبدو الغضب على وجه أمك حينما تسمعك تقول : لست  
أدرى !

فتقول لضيوفها معذرة : - يحيل الى ان جميع اطفال هذا  
الجيل على هذا الطراز ، لا يعلمون ولا يباليون ! ولا يحددون هدفا  
معينا للمستقبل كل ما يهتمون به في هذه الأيام هو الجرى الى  
المدرسة ، ثم الذهاب الى السينما !.

وكنت المحك تطرق برأسك خجلا ، فأرثى لك ، فهل تراك قد  
احسست وقتئذ بأن قلبى معك ، وانى لا أومن بتاتا بما يعتقده  
بعض الناس من ان الدنيا تشهد اجيالا أسوأ من سابقها .  
أما أنا حينما كنت فى مثل عمرك ويفاجئنى احدهم بذلك  
السؤال السخيف - فأنى كنت اجيبه على الفور

- سأدرس القانون ، لا لرغبة حقيقية فى نفسى . بل علمى ان  
تلك الاجابة تسعد أبى ، فقد كنت ارتجف فزعا من مجرد التفكير  
فى ارتداء « روب » المحاماة مواجهها الجمهور والخصوم والقضاة ،  
أو فى أى عمل له احتكاك مباشر بالناس ، وكان حلمى الأكبر هو ان  
اغدو استاذا فى العلوم انزوى فى معملى الخاص أجرى فيه  
ماشاء من الابحاث بعيدا عن العيون والأنظار !  
ثم انتهى بى المطاف لأتولى منصب المحاسب الاكوتارى فى  
اهم شركات التأمين بفرنسا .

وصدقنى - ولا اقول ذلك زهوا او غرورا ، اننى أؤدى من  
خلف ذلك الباب اللامع المفلق المعلقة عليه لافتة « ممنوع لدخول »  
عملا بالغ الأهمية شديد الحساسية فى عالم المال والاقتصاد ،  
لست حقا ممن يجرى الذهب بين اصابعهم ، أو ممن ترمقهم العيون  
فى تلك المكاتب الواسعة ذات التماثيل الرخامية الرائعة والاثاث  
الفاخر ومع ذلك فانا الجندى المجهول الذى يحمل على كاهله أثقل  
الأعباء !



وستدهش حين أقول لك : أتى قد حققت أيضا حلمي الكبير  
« استاذ العلوم الذي يجرى الأبحاث الخطيرة في معزل عن الناس »  
فأنتى داخل مكتبى أبحث علميا وتحت مجهر مكبر طبيعة الكوارث  
بكل أنواعها برا وبحرا وجوا ، سواء أكانت عن وفاة أو حريق أو  
غرق أو حوادث سفن وطائرات ، أو مخاطر طبيعية واقتصادية  
وجنائية ، ربها أو خسارة .

ومن أجل هذا ، رأيت فى مكتبى تلك الآلة الإلكترونية الحاسبة  
التي أثارت فضولك .

ومعدرة ان كنت أبحث فى نفسك الملل وأنا اذكر لك ذلك .  
ولكنى أريد أن أثير فى نفسك الشعور بالاهتمام بعمل أهلك ،  
فهل تصدق مثلا ان كل كشف جديد فى دنيا الطب والدواء يقرب  
تقديراتنا كلها رأسا على عقب ، وان أى تغيير فى رغبات الناس  
أو ما اعتادوه من طعام أو شراب أو كساء يقلل أو يضاعف الحد  
الأدنى الذى ينبغى ان يدفعه المؤمن عليه ، وان أقل خلاف فى  
تقدير سرعة الرياح أو شدة الأمواج أو مدى ما يتعرض له البلاد  
من وباء مثل الانفلونزا أو الكوليرا ، تحملنا خسائر تزيد عن بلايين  
البلايين من الفرنكات ، بالإضافة الى تلك الزيادة المطردة فى  
السيارات التي تجرى على الطرق البرية بسرعة البرق . والآلات  
الكهربية التي لا يخلو منها بسبب تقدم الحضارة أى مصنع أو  
مكتب أو بيت ويستخدمها الناس فى كل شئ ، وما سببه كل  
ذلك من كوارث فى الأرواح والأموال !.

وهكذا ترى أن جميع أولئك البشر الذين ينطلقون أمامك فى  
شوارع باريس وعواصم البلاد الأخرى يدخلون الآلات ذات الفعل  
الإلكترونى ، ويخرجون منها أرقاما ورموزا، وعلى أساس تقديراتنا  
تعمل هذه المؤسسة الضخمة من أول ذلك الساعى الصغير حتى  
مديرها الكبير !

وأكاد أشعر بنفسي - وقد غدوت مجموعة من الرموز والأرقام  
حتى أولئك الضيوف الذين تركتهم توا مع والدتك أرائى فقدت  
الاهتمام بهم كمخلوقات من دم ولحم ، مما يفسر لك غرامى فى

## الاعتكاف وحدي .

ومنذ سنوات وأنا ارقبك خفية لأرى : هل تحب امك اكثر  
منى ، أقصد : هل هي اقرب الى قلبك منى ؟ وهل تحقق فى  
خيالك الصورة التى يتمناها كل ابن لأمه ؟  
انها - وان كانت صارمة حازمة فى معاملتها لك ، كما هى معى  
أحيانا - لا ينقص ذلك من حقيقة حبها لك ، وهو حب يختلف كما  
وكيفا عما تشعر به هى نحوى .

وأكاد المس من طريقتها أنها تريد أن تخلق منك رجلا مثاليا ،  
تحددت صورته فى أحلامها ، وانها فى سبيل ذلك قد تشتط  
فى قسوتها كلما بدر منك ما يعكر صفو تلك الصورة الجميلة  
التي تحب أن تقدمها فى طبق من الذهب لمن اختارتها لك شريكة  
العمر «ميريل» حتى تليق بمصاهرة وزير المستقبل أو ربما أصبح  
رئيسا للوزارة قريبا أو بعد حين !

أنا لا أبخس والدتك قدرها ، أو أحاول أن أحط من شأنها  
أمام عينيك .

ولعلك قد أدركت بما أوتيت من ذكاء وفطنة اننى وامك لسنا  
بالزوجين المثاليين بما تحويه العبارة من معان ، ولا أعنى بذلك ان  
أحدا منا يكره الآخر أو يتمنى فراقه ، فنحن راضيان قانعان بأن  
تكون صديقين فحسب ، لكل منا غرفته الخاصة ، نشترك فى  
أوقات الطعام ، كما نشترك فى الاسم الواحد .

وقلما نتشاجر فى وجودك ، وفى الحق نحن لا نتشاجر أبدا  
فى هذه الأيام ، لأننا لانتقى الا نادرا وفى المناسبات .  
ولم يحدث ذلك فجأة ، بل تدريجيا وعلى مر الأيام ، وبعد  
أن تزوجنا ببضعة شهور .

وأنا لا ألومها فى ذلك مطلقا ، فالذنب ذنبى بمفردى ، وأنا  
الذى أسأت لى نفسى ولها أيضا .

ولكن مهلا ، فما زال امامنا متسع من الوقت حتى نخوض معا  
ذكريات الماضى .

وما بدأت قصتى بالحديث عن جدك الا لان مراسم دفنه هى

التي اوحى الي بالكتابة اليك ، واهم من ذلك أيضا انه كان اهم شخصية لعبت دورها في مأساة عام ١٩٢٨ ، كذلك كان الضحية الاولى في أسرة فرنسوا ، وقد شاءت الاقدار ان يتلطح اسمه وهو في اوج مجده بالخطيئة والعار .

وعندما تزوجت والدتك في ١٩٣٩ لم يكن احد منا تنقصه الخبرة او التجربة ، بل كان كلانا عاقلا رشيدا حنكته الايام ، في الواحد والثلاثين من عمره ، ولكل منا ماضيه .

ولم تحاول اخفاء شيء من ماضيها عني ، كذلك أنا اعترفت لها في صراحة وصدق بكل ما وقع في لاروشيل عام ١٩٢٨ .  
وثق بأن ما ستعرفه في السطور القادمة عن والدتك سوف يضاعف من حبك لها ، أما أنا فلست أدري يا ولدي : هل نرحمني أو تلومني بعد مماتي ؟

\* \* \*

كان ذلك آخر مأسطره قلبي حتى مساء الجمعة .  
وكنا قد ذهبنا البارحة « السبت » الى المسرح بدونك ، ولم نطلب منك ان ترافقنا ، لكثرة ماكنت ترفض في المرات السابقة مفضلا ان تقضى الوقت مع بعض اصدقائك مما كان يحز في قلب والدتك قليلا .

واليوم - الأحد - الطقس قارص البرودة على غير عادته في نوفمبر ، الحرارة دون الصفر ، وزهرة الأنة اوغسطين لم تظهر في نافذتها الا فترة وجيزة جدا في النافذة ، حينما استطاع شعاع هاديء من الشمس ان ينفذ متلصصا من بين السحب ليطلع قبلة خاطفة على جبين الزهرة ، قبل ان تعود الى احضان صاحبها تلتمس الدفء والحب والحنان .

ومزاج أمك - كما تعلم - لا يكون صافيا معتدلا ايام الاحاد خاصة ، لان صديقاتها لا يلبثن في اماكنهم المعتادة في ذلك اليوم مما يضطرها للحد من برامجها ونشاطها المعروف ، فاليبيت يخلو من الخدم ، ومدام جواز الطاهية تختار الأحد من كل أسبوع عطلة لها ، كذلك اميلي - برغم علمنا الاكيد بأنها ليست حريصة على دينها - تتمسك بحقها القانوني وتغيب حتى الظهر بحجة الذهاب



للصلاة فى الكنيسة ، ولا ندرى اين تذهب هذه الفتاة فى اتم زينتها وابهى ثيابها ورائحة العطر النفاذ تنبعث من شعرها ؟ .  
وتبدأ مشاكلنا منذ الصباح ان لم تكن فى الحقيقة من امسيات السبت حيث نفكر فى افضل الوسائل لقضاء اليوم ، فمن اثقل الامور على النفس ان نقضيه بين جدران البيت معا ، ثم الحدائق والشوارع مزدحمة لآخرها بالسيارات ، غاصة بالمارة والمتسكعين ، اما المسارح ودور السينما فحافلة بالرواد والتلاميذ وعاملات المصانع والمتاجر ولا موضع لقدم ، والمحال التجارية مغلقة والمصالح الحكومية معطلة ، ومعظم المعارف والاصدقاء غائبون فى مزارعهم البعيدة فى الريف للصيد والقنص فى مثل هذا الوقت من العام .  
وقامت والدتك الى التليفون تدير القرص مرات ومرات ، ولم تجد الا اسرة ترمبلى .

وكما تعلم . اعتذر ترمبلى عن الحضور ، لانه الطيب المنوب هذا الاسبوع ، واقترح ان نذهب جميعا الى شقته التى يستعملها سكنا وعيادة لمرضاه فى ميدان ( ترنيه ) والتى يمتلىء هواؤها برائحة اليسول والكلوروفوم ودعانا ان نمضى السهرة معه وزوجته فى لعب الورق .

ولم اشعر هذا الصباح برغبة فى نفسى للكتابة ، فامضيت فترة الصباح غارقا فى مقعدى الوثير خلف مكتبى سابحا فى افكارى .

وفى اثناء تناولنا غذاءنا - دق جرس التليفون فاسرعت اليه امك . وبرغم بعده عنى استطعت ان اميز فيه صوت عمك فاشيه ، وقالت امك له :

- شد ما يؤسفنا ان ذلك مستحيل . سوف نخرج فى المساء انا وآلين لزيارة بعض الاصدقاء ولعب البريدج .  
وكنا نجلس معا امام اطباق المشهيات فى انتظار والدتك ننصت فى صمت .

- آه! . ولكن الا يمكن ان يتم ذلك غدا ؟  
وتحدث طويلا ، وامك تصفى اليه .  
- حسنا ، اجل ، بالطبع ، انتظر لحظة . . . ساخبره .

ووضعت يدها على بوق المسامع وقالت :

- هذا « بير » يرغب في مقابلتنا هذا المساء لتقرير ما يلزم بخصوص المزرعة والقصر ، لأنه مضطر للسفر الى لندن يوم الثلاثاء في رحلة يطوف فيها بالجزر البريطانية لالقاء بعض المحاضرات، وقد تطول رحلته ، وقد اتصل بمحاميه لتحديد موعد الاجتماع غدا ، فأخبرته بأننا مرتبطون بزيارة ، ولكنه مصر .

وهزئت كتفى استخفافا ، كان مجرد التفكير في أن ينتظر شخص ما أباه ليموت حتى يرث فيه ، يبعث في نفسى الاشمئزاز، ومن الخير أن تنتهى من ذلك الشيء المكروه سريعا فقلت لها :  
- ما عليك الا أن تتصلى بالسيدة ترمبلى وتعتذرى لها بأننا لن نستطيع الحضور لأسباب عائلية طارئة . .

وأظهرت أمك استياءها بنفخة من أنفها وقالت :

- هكذا يفعل بير دائما ، يفاجئنا بتحديد مواعيده في آخر لحظة !

ثم رفعت يدها عن المسامع وقالت تحدث فاشيه :

- بير ؟ سنشعر بكثير من الحرج أمام أصدقائنا الذين يتوقعون حضورنا ، ولكن مادمت مصرا ماذا تقول ؟ انتظر لحظة !  
والتفتت تسألنى :

- أهنا ام فى شارع هى باسى ؟ .

وكانت أمك تفضل لو انتقلنا الى شقة عمك، فتكون قد خرجت من بيتها على أية حال ، ومع ذلك فقد أجبتها فى حزم :  
- بل يحضران هنا !

ولا بد انها فهمت قصدى ، ولكنها لم تجرؤ على معارضتى ، فأنا وريث أسرة لافرنسوا ، وما عمك فاشيه الا زوج شقيقتى ، وليس من حقه أن يدس أنفه ويحشر نفسه فيما لا يعنيه من أمورنا، فلا أقل من أن يحضر هو الى - اذا أراد - ولسوف يضايقه ذلك بلا ريب وقد اعتاد أن تجاب أوامره وتطاع على الفور لمجرد أنه أديب كبير مشهور ، يلمع نجمه فى جميع الأوساط .

واننى لأعلم انك قد تأثرت بشخصيته ، وتمتلىء نفسك زهواً وتنفخ صدرك فخرا حينما تسمع اسمه يتردد فى الصحف او

الإذاعة ، أو حين تجد صديقا لك يقرأ في شغف أحسدى روائع قصصه فتقول : هذا عمى ! .

ونحن مقتربان فى السن ، ولا يكبرنى بأكثر من أربعة أعوام ، لكنه يبدو أصغر منى سنا ، لأنه دائم الحركة جيم النشاط للدرجة مذهلة ، لم يترك بابا للشهرة الا طرفه وامتد نشاطه الفكرى الى الميادين كافة . فى المسرح والسينما والتليفزيون ، كما انه ينتمى لعدة نقابات ونواد فى كل بلد .

حتى زوجته - شقيقتى آرليت - التى كانت فى السنوات الأولى لزواجها تعاونه فى كتابة مقالاته وقصصه على الآلة الكاتبة انتقلت اليها عدوى الحماس والشهرة فبدأت تكتب مقالات فى شتى الموضوعات للمجلات النسائية أولا ، ثم فى جميع وسائل النشر والإعلام حتى ذاع صيتها هى الأخرى ، واحتلت مركزا فى الأدب بضاهية ، وكثيرا ما تراهما مدعويين الى إحدى الحفلات ، كلا على انفراد ، وبدعوة خاصة باسمه .

هذا هو بير فاشيه - الذى سوف أحدثك عنه فيما بعد، والذى لم يكن حينما تزوج شقيقتى آرليت الا كاتباً مغموراً فى قلم المباني والأشغال المدنية ، القسم الخامس من مبنى محافظة شارنتى التى كان أبى حاكمها العام فى عام ١٩٢٨ ، وكان خشن الطباع أصفر الشعر والوجه نحيل القوام ، ولم يتغير فيه شيء بعد ثمانية وعشرين عاما الا شعره الذى مضى الى غير رجعة ، لكن صلغته اكسبته صحة وشبابا حتى أمسى من العسير أن تقدر عمره !

وقالت والدتك : ابدأ فى طعامكما ، سوف أتصل بال ترمبلى فورا .

وأملك دون أية اساءة لها تشعر بالاعزاز والفخر لأنها تصاهر مثل ذلك الرجل العظيم ، وكثيرا ما عبرت لى عن أسفها لان فاشيه لم يزورنا قط فى الأيام الأخيرة ، والحق يقال ، انه لم يظأ عتبة بيتى منذ سنوات ؛ بل كان يرسل بين الفينة والأخرى بطاقات دعوات لحضور الحفلات التى سيلقى فيها محاضرات او تعقد لتكريمه ! ، وحين عادت للمائدة كانت متوترة الأعصاب ، فان السهرة التى



أعدتها قد اخفقت بذلك الموعد المفاجيء ، فمضيت أتساءل .  
يا ترى سيكون الضحية التي ستنفث فيه غضبها ، والبيت خال من  
الخدم ؟ .

وكنت أنت - تلك الضحية يا ولدى ، فلقد نظرت اليك فيجاءة  
وهي تطبق فوطتها وقالت تسألك :  
- ما الذي ستفعله هذا المساء ؟ .  
واحبتها أنت في شرود : لست ادري ! .  
- اخرج انت ؟ .

وبدت عليك الدهشة ، فهي تعلم انك نادرا ما تمضي أمسيات  
الاحاد في البيت .  
- أجل ، أظن ذلك . .

ولا بأس من أن أصارحك بأن لك طريقة في الاجابة كفيلة بأن  
تثير أعصاب الحليم ، ومع ذلك فأنا أعلم أنك لا تقصد أن تكون  
خشنا وانما هي حدة في طبعك ، وانك في أغلب الأحيان تنسى  
ما ينبغي عليك من رقة وأدب في مخاطبة والديك ، وكنت متحفزا  
كالملاك الذي يشمر عن ساعده للدفاع عن نفسه ، ولعلك قد  
اثارتك أسئلتها التي تمس تحركاتك التي تعتقد انها تخصك  
وحدك .

وهتفت أمك في غضب :

- هل تظن ذلك ؟ أو انك واثق من نفسك ؟ .

- لست ادري يا ماما ! .

- اذهبي انت الى السينما ؟ .

- ربما .

- مع من ؟ .

- لا اعلم ! .

- ألا تعلم مع من ستخرج بعد قليل ؟ .

وكنت التمس لك العذر واقدر موقفك ، لاني مررت بتلك  
المرحلة في صباي ، كذلك كنت افهم سبب غضب والديك أيضا ،  
لقد نسيت أنك لم تعد طفلا ، وأن الفتى في عمرك يمقت كل نوع

من الرقابة ، وانا شخصيا حينما كنت فى مثل سنك كنت اغادر بيتى بلا هدف محدود ، وامضى أفتش عن أصدقائى فى كل مكان : فى المقهى ، على ابواب السينما ، او ربما على ناصية شارع ما ، وعندما نتقابل ننطلق ونذرع الطرقات والميادين ذهابا وايابا حتى نكل أقدامنا ونشعر بالتعب ، ثم نفرق ، وكنت اذا فشلت فى العثور على احد من رفاقى هنا او هناك اذهب أقرع ابواب دورهم حتى أجد ضالتي ، ذلك ما كنت افعله .

أما أنت فقد غمغمت وأنت تنظر فى طبقك :

– نعم ، لست أدري !

– واين كنت تذهب فى أمسيات الأحاد قبل الآن ؟ .

– على حسب الظروف ! .

– أترفض أن توضح لنا أين وكيف تضى اوقات فراغك ؟ .

وكنت المحك تزداد تحفزا وأنت تنكمش حول نفسك رويدا رويدا وكأنك تتسلل فى قوقعة توشك أن تغلقها عليك ، وسمعتك تجيب واجما :

– أما قلت لك على حسب الظروف ؟

وأكاد أقسم أن الأمر لا يعدو أمرا من اثنين لا ثالث لهما . أما ان للبنات نظاما خاصا فى الإفضاء بكل ما فى قلوبهن لامهاتهن ، او تكون أمك قد نسيت أيام طفولتها ، فما زالت مصرة على اقنحام تلك القلعة المغلقة التى تحتفظ فيها بأسرارك، وكأنها تجهل انه مامن بشر فى الدنيا – وفى أى طور من اطوار حياته – لا يحتفظ فى ناحية من قلبه بأشياء عزيزة على نفسه يكره أن يطلع عليها مخلوق مهما كان شأنه ! .

وبهذه المناسبة : هل تذكر حينما كنت أسألك – وأنت فى الخامسة من عمرك – فى بعض الليالى . عما فعلته فى المدرسة ذلك اليوم ؟ وكانت اجاباتك لا تختلف عما تجيب به الآن ! .

– لا شيء ! .

– اليس لك أصدقاء صغار يشاركونك فى اللعب مثلا ؟ .

– بلى .

- من هم ؟ .
- لا اعلم ! .
- وما الذى تعلمته فى المدرسة اليوم ؟
- أشياء كثيرة .
- فقد كنت - وفى تلك السن الصغيرة - تشعر بحاجتك الى الاحتفاظ بالصندوق المغلق بما يحويه من غموض وأسرار ، لاتحب أن يفرضه انسان ! .
- ولكن ذلك لم يرض والدتك ، ألم أقل لك ان أعصابها كانت فى بداية الأمر متوترة ؟ .
- أتسمع كيف وبأى لهجة يخاطبنى ابنك يا آلين ؟
- أجل ، أجل ! .
- رباه ! وما الذى كان فى وسعى أن افعله ؟ .
- كأنك تجيز سلوك ابنك الشائن ! فتى فى السادسة عشرة يأتى ان يصارح أبويه بما ينوى أن يفعله !
- وغمغمت تقول محاولا انقاذ الموقف : انصتى لى يا ماما .
- ولكن الوقت كان قد فات ، واذا بدأت العاصفة فلا قوة فى الوجود تستطيع ان تحول دون مضيها للنهاية .
- يجب ان تفهم ان من حقى ، بل ومن واجبى أن اعرف كل شىء عنك مادام أبوك لا يهتم بك او ببالى .
- وامتقع لونك وانت تسألها :
- وهل ينبغى أن آخذ منك تصريحاً كلما ذهبت الى السينما؟ .
- ولم لا ؟ .
- وفى كل مرة أخرج لأقابل صديقاً أو... .
- بكل تأكيد ! .
- وهل تعرفين اياً من الأولاد يفعل ذلك ؟ .
- كان كلاهما متساويا فى العناد .
- أتمنى أن يفعل كل الأولاد ذلك وخاصة المهذبون منهم ! .
- اذن كل اصدقائى غير مهذبين ؟ .
- هذا لأنك تسيء اختيارهم ، أما انت فعليك ان تفهم أنه طالما إنك تعيش معنا تحت سقف واحد يجب أن تكون مثال الطاعة



والادب والخلق الحسن ، تلك واجبات مقدسة ينبغي أن تؤديها  
نحونا .

وارتعدت شفتك السفلى ، وكان يحدث لك مثل ذلك فى  
الماضى وأنت بعد طفل صغير كلما شعرت برغبة شديدة للبكاء، ولكن  
كبرياءك منعك من أن تذرف الدموع أمامنا ، وحقا قلما رأيناك  
تبكى ، وأذكر اننى ضيقتك ذات يوم - حين كنت فى الثالثة من  
عمرك - تحبس نفسك داخل صوان ثيابك وقد انخرطت فى بكاء  
شديد ، وكادت أغلق الباب عليك بلا قصد ، وعندئذ صرخت فى  
وجهى تمنعنى بين نحيبك وانينك !.

- اذهب عنى ، انا اكرهكم جميعا !.

ولما جذبت ذراعك بالرغم عنك انتزعك من مخبئتك مضيت  
تركلى بقدميك الصغيرتين وتعمل أنيابك الخضراء فى يدي وأنت  
فى قمة ثورتك وغضبك !. هل تذكر ذلك يا ولدى ؟.  
ولكنك لم ترفس ولم تعض أمك اليوم ، بل وثبت واقفا فى  
عنف ، ومضيت ترمق أمك فى حيرة لا تعرف ماذا تقول ؟. وأخيرا  
قلت متلعثما :

- فى هذا الحال من الأفضل أن أخرج من هنا فوراً !.

ولبثت فى مكانك برهة ، وكأنك تتوقع أن يلين قلبها لتطلب  
منك البقاء ، لكنها لم تحرك ساكناً اذ عقلت المفاجأة لسانها وشملت  
تفكيرها ، وحاولت من جانبى أن أشتير لك مهدئاً حتى تحنى رأسك  
الصغير للعاصفة وتنتهى الموقف بالاعتذار لها ، لكنك لم تعسرنى  
التفاتاً !.

وكل ما استطعت ان تفعله هو أنك غادرت قاعة الطعام ضارباً  
الباب خلفك فى عنف ، وانطلقت توسع الخطأ بما يشبه العدو الى  
غرفة نومك .

وعندئذ زارت والدتك وهى تلهث فى عنف :

- هل رأيت ؟.

- أجل !.

- طالما حذرتك ! وهأنذا قد سمعت بأذنيك نتيجة افراطك فى

تدليله !.

ولم أجب ، ووقفت اميلى المسكينة حائرة لا تعرف ماذا  
تفعل ؟ وهل تستمر فى تقديم الطعام ؟ .  
- هاتى الحساء يا اميلى .

ثم حدتني بانظارها وقالت :  
- انك لم تنبس حرفا او توجه اليه لوما مكتفيا باتخاذ موقف  
المتفرج كأنك راض عن مسلكه، وحقا اكاد اكون واثقة من انك موافق  
على مسلكه ! .

ولم أستطع ان اجيبها مؤيدا اتهامها ، وفى الوقت نفسه لم  
يكن فى وسعى ان أكذب فأجيبها نفيًا ، فصمت ! .  
- على الأقل أرجو ان أراك تؤدبه على اللهجة المخجلة التى  
سمعتة يخاطبني بها ، ولو كنت مكانك لبدأت عقابه باصدار الأمر  
اليه بعدم تركه البيت اليوم كله ! .  
فنهضت .

- الى أين ؟ .

- سأخبره .

- بماذا ؟ .

- بأنى أمره بعدم مفادرة البيت .

- يخيل الى انك سوف تتلطف فى الحديث معه .

- كلا ! .

- بل ستفعل ذلك ، واقرا ذلك فى عينيك !

وانطلقت الى الباب - دون ان أجيب - أما الباقي فتعرفه ،

الا اذا كنت قد نسيتته ، ومع ذلك فربما نسيت ذلك حين تقرا  
رسالتى بعد بضع سنوات .

وجدتك مستلقيا بكامل ثيابك فى عرض الفراش وقد دفنت  
وجهك فى الوسادة ، ولكنك لم تكن تبسكى ، ومع انك شعرت  
بقدومى من وقع خطواتى لم تحرك ساكنا ! .

- انصت الى يا بنى .

وحركت رأسك قليلا حتى تبعد فاك عن الوسادة دون ان

ترينى شيئا من وجهك .

- لا أريد حديثا من احد ، لا منك ولا من أى مخلوق ! .

— ما جئت الا لاخبرك بأن تلزم البيت لا تغادره هذا المساء!  
— اعرف ذلك .

وساد الصمت بيننا ، وكنت أسمع تنهداتك العميقة تهز قوائم الفراش ، وأنا فى دوامة من الحيرة لا أعرف هل من المناسب أن أقول لك شيئاً قبل أن أخرج ، أو أتركك لحالك ؟ وعندئذ سمعتك تقول فى صوت متهدج مكتوم :

— اطمئنوا ، لن أخرج !.

وأقسم أنها كانت لحظة صفاء عجيبة ، تجاوزت فيها ارواحنا واتصلت قلوبنا فى مناجاة روحية صامتة لم تحدث لنا قط من قبل . وشعرت كأن ضوءاً باهراً أقوى من شمس مايو الساطعة يملأ غرفتك ! .

وقبل أن أتركك ، ربت على كتفك بأصابع مرتعشة حانية ، ثم أغلقت الباب خلفى فى هدوء دون أن أنطق حرفاً .  
— ماذا قال لك ؟

— سيظل فى الدار .

— اكان يبكى ؟ .

وما كان بوسعى ان انطق كذباً ، فهزرت راسى نقياً .

وحينما دقت الساعة الرابعة . وكنا قد امضينا وقتاً طويلاً مع عمك وزوجها فى غرفة الجلوس ، انتهزت فرصة مرور امك بى ، فهمست لها : لعلك قد نسيت جان بول ؟

وبدا من نظرتها أنها لم تفهم ، فلما أومأت براسى تجاه النافذة حيث أوشكت الشمس أن تغيب فهمت ما أعنيه فقالت : حسناً ، سأذهب اليه .

وقلت للضيفين اللذين لم ينجبا أبناء : مسألة عائلية بسيطة . ومضيت اصب لهما مزيداً من الشراب مبالغة فى الحفاوة . وحين عادت والدتك كانت فى حالة طيبة ، وقالت فى صوت لخفيض وعلى مسمع من الجميع :

— سيأتى لتحية الضيوف الاعزاء تحية المساء قبل أن يخرج .

وظلت لفترة طويلة تتحاشى النظر فى عينى ! .

وامتأنفنا الحديث مرة أخرى بعد خروجك مع فاشيه وعمتك ،



وكان دورى فى النقاش صغيرا ، فقد أحسنت أمك عرض وجهة نظرى والدفاع عن مصالحى بأحسن مما لو كنت فعلت بنفسى . وعمك فاشيه ، لأن دخله يكاد يكون ضعف دخلى ، بالإضافة الى ما تربحه عمته أيضا من الكتابة والتأليف ، يعيش هو وزوجته فى اسراف وبذخ شديدين ، مع انه منذ عامين مضيا فحسب ، كانت عمته تتردد على مكتبى تطلب قرضا يكفى تسديد نفقات البيت حتى أول الشهر !.

ولقد فوجئت - يوم وفاة أمى - بفاشيه يسألنى فى لهجة بريئة :

- لا اعتقد انك تفكر فى الإقامة أبدا فى هذا المكان المكروه !. ولم أستطع ان أجيبه وقت ذلك بغير الحقيقة ، فلقد انقطعت صلتى تقريبا بفيلا ماجالى بعد ان مضى على وقت طويل وأنا أقطن باريس بعيدا عن لوفيسينيه ، والتي فقدت كثيرا من أهميتها بعد ان هجرت العائلات القديمة ذات الأسماء الكبيرة قصورها بين أحضان الريف . وكان جدك وقتئذ على قيد الحياة .

ولكنى علمت بعد ذلك بفترة وجيزة وبحكم عملى فى شركة التأمين من مصدر أثق فيه ، أنه قد تم اتصال بين فاشيه وبين إحدى المؤسسات التى تقوم بأعمال المقاولات والبناء ، لجس نبضها ومعرفة الثمن الذى تعرضه فى القصر لو توسطت فى عرضه للبيع .

وهو لا يعلم انى اعرف ذلك ، ولم اذكر له شيئا - الى اليوم - حينما كان يقول :

- كنت أتحدث مصادفة مع صديق لى من رجال الأعمال ، وسألنى عما ننوى ان نفعله فى القصر ، وأكد لى أن هذا الوقت هو أنسب الأوقات للحصول على ثمن مفر ربما لا نستطيع الحصول عليه فى وقت آخر !.

ولم أكن قد اطلعت أمك على ذلك السر ، ومع ذلك فقد ادركت من نظرتها السريعة نحوى أنها فهمت . والقصر بحالة مبانيه الراهنة لا يساوى شيئا ، بدون حديقته

الواسعة التي تدخل بين أسواره الأربعة العالية . .  
وقد قامت على جانبي الطريق دور حديثة مرتفعة البناء من  
ذات الطوابق الستة ، ولم يبق إلا عدد قليل من القصور الخاصة  
التي تحكى العز التالد والرخاء القديم ، فلو أتيح لهم إزالة قصر  
ماجالي لشيدوا مكانه عددا من العمارات الجميلة على أحدث طراز  
تسكنها مئات من العائلات .

و شد ما كنت أكره من اعماقي أن أسمح ليد الهدم أن تلك  
ذلك البيت الذي أحبه أبواي ، وشهدت فيه ذكريات عزيزة على  
نفسى مما يفسر تلك النظرة المتجهمه العابسة التي كانت تبدو فى  
وضوح على وجهى . النظرة التي كانت تبدو على وجهك أيضا وأنت  
تكتم ثورتك واحتجاجك على ما تتخيله من اضطهاد أمك لك ! .  
كنت أعرف - اذن - ما وراء ذلك الحماس الذي كان يتحدث

به فاشيه وهو يبسط وجهة نظره فى اقناعنا بقبول ذلك العرض  
الذى أقبل الينا بحمله مفوضا من ذلك الصديق - رجل الأعمال -  
فقد قيل لى : ان مؤسسة البناء قد وعدته بعدد كبير من الأسهم  
لو أفلح فى اتمام الصفقة ، ودفعنا على التخلّى عن أرض الآباء ! .  
ومع ذلك فقد اغلقت فمى وتركت لوالدتك الاتفاق على كل  
التفاصيل المالية وطريقة الدفع ، وكذلك أنجع الوسائل لخدبة  
الحكومة فى انقاص قيمة التسجيل وشهر الارث المطلوبة منا .  
واتفقنا على أن نذهب لمقابلة المحامى فى القد ، ولما كان أبى قد  
توفى دون أن يترك وصية من بعده فمن المعروف ان الثروة تقسم  
مناصفة بينى وبين شقيقتى آرليت .

وكما قلت لك : لم يكن فى ذلك أى شىء يدعو للغبطة أو السرور  
ونحن نتقاسم كالذئاب الجائعة ما تركه لنا الأسد ، لذلك شد ما  
كرهت أن أرى فاشيه يكاد يرقص فرحا وهو يخطر بيننا وكأسه  
فى يده قائلا :

- يحسن بنا ان ننتهى أيضا من موضوع الكتب والمكتبة ، اذ  
لا مناص من أن نبيع كل المنقولات فى المزاد ! .  
والمنقولات التي يعنى فاشيه انها سوف تباع فى المزاد هى  
الأثاث والمفروشات التي أمضى أبى وامى جزءا كبيرا من حياتهما

فى جمعها وقضيا بينها أيامها الأخيرة .  
وفوجئت بشقيقتى آرليت تقول :

– ما عدا قمطر أمى الصغير الذى اعتادت أن تكتب عليه ، ولقد  
وعدت قبل وفاتها أن تهديه لى ، ولم أشأ أن أقول لكما ذلك حينما  
ماتت ، أما الآن وقد ...

وسألتنى أمك : هل كنت تعلم يا آلين ان أمك وهبت قمطرها  
الى آرليت ؟ .

وكان صوتى خشنا حادا ، وأنا أقول فيما يشبه الصباح :  
كلا ! .

– أوه يا آلين ! ولكن حاول ان تتذكر يوم أن كنا جميعا فى  
« لاروشيل » ..  
– كلا ! .

– ما أضعف ذاكرتك حقا ! ومع ذلك فأنا أتمس العذر لك  
بسبب ندرة زيارتك لأمى فى أيامها الأخيرة .

– ان ما أحب ان أعرفه هو ما الذى كان زوجك يريد أن يقوله  
بشأن المكتبة ؟ .

– آه ! . مجرد اقتراح فكرت فى أن أعرضه عليك . ولكن يخيل  
الى ان أعصابك ليست على ما يرام .  
– هأنذا انصت اليك .  
– أراغب حقا فى أن تسمعنى ؟ .  
– أجل .

– لقد كنت أكثر اتصالا بأبيك ، وأعرفه أكثر منك ، ففى  
لاروشيل خطبت شقيقتك ثم تزوجتها وبين جدرانها وضعت باكورة  
انتاجى وكنت انت فى ذلك الوقت ماتزال طالبا لم تحدد بعد طريق  
مستقبلك . تارة تقول : انك تحب الانخراط فى السلك الإدارى ،  
وتارة أخرى تزعم انك تفضل ان تكون أستاذا فى العلوم ، وفى ذلك  
الحين كان أبوك عاكفا على جمع كتب التاريخ والفلسفة والأدب ،  
وفى اثناء وجوده بلاروشيل لم يترك أى كتاب جديد وكان يتردد  
دائما على دور النشر ومكتبات سوق دوميناج حيث كانوا يعرفونه



كلهم ، وكما تعلم كانت القراءة وتنسيق الكتب هي تسليته الوحيدة حتى آخر أيام حياته .  
وصمت فاشيه لحظة ، كان يستجمع انفاسه ليلقى قنبلته  
الآخيرة !.

- وحيث انى قد اتخذت الادب حرفة لى ويهمنى كثيرا ان  
أحصل ...

ولا تدهش اذا علمت انى لم ألق بذلك البهيم من النسافة  
المجاورة ، ولم ألكمه أو أصفعه على قفاه ، فقد كان اقتراحه يتلخص  
فى أن يبادلنى ، لا ، ليس ذلك هو التعبير المناسب ، بل الأصح هو  
اختلاس مكتبة أبى بما تحويه من ذخائر نفيسة مقابل أن يترك لى  
باقى الأثاث والمنقولات !.

ويبدو أنه أساء فهم سكوتى ، فقد لبثت جالسا فى مقعدى  
المرىح مشبكا يدي حول صدرى محمقا فى السجادة أمامى ،  
فاسترسل فى اغرائه ، بل فى هرائه :

- أوكد لك أن من الأثاث تحفا تعتبر نادرة يتمنى الهواة شراءها  
بأثمان خيالية ، ولا تنس اللوحات الجميلة .

فوثبت واقفا فى حركة عنيفة تماما كما فعلت انت على مائدة  
الطعام ، وقلت فى حدة :  
- كلا !.

ويبدو أن حركتى كانت مباغطة واجابتى كانت فى حدة السوط ،  
بعيثة الجموا جميعا وتسمرؤا فى أماكنهم . وهم يرمقوننى فى  
دهشة وخوف ، بيد انى اوليتهم ظهري وخرجت بعد أن صفقت  
الباب خلفى فى شدة !.

ولم اذهب لفراشى مباشرة كما فعلت أنت ، بل انفردت فى  
مكتبى امضع غيظى وغضبى ، حتى اقبلت أمك تقول : « لقد  
انصرفا » .

ثم اردفت وهى تجلس امامى فى ظلال الغرفة بعيدا عن دائرة  
مصباح المكتب الكهربائى :

- حسنا فعلت بتركك الغرفة ، فقد كان يبدو عليك الضيق  
الشديد وخفت أن تفقد السيطرة على نفسك !.

– وماذا قال ؟ .

كنت أعرف من أنه لابد من أن يقول شيئاً ، وصمتت أمك لحظة  
ثم أجابت :

– أتحب حقاً أن تعرف ؟ .

– نعم ، نعم ! .

– قال : انه لم يتوقع قط تلك المشاعر الكاذبة التي عبرت بها  
عن حبك لأبيك وتقديرك لذكراه ، كأنك لم تتسبب في كل تلك الكوارث  
التي قصمت ظهره ! معذرة يا آلين ! أنت الذي طلبت ذلك ! .

– وما الذي قررتموه أخيراً ؟

فأجابتنى وعلى شفيتها بسمة الفوز :

– لقد أتممت الاتفاق على أن تبقى المكتبة لك مقابل أن تترك

لهم حصيلة بيع الأثاث .

– وقمطر أمي ؟ .

– أذنت لشقيقتك ان تحتفظ به ، لأنه لا يناسب نظام بيتنا ،

ولكنك ستأخذ قمطر أبيك ومقعده الكبير . . والآن : هل تعلم الى

أين نحن ذاهبان ؟

– كلا .

– الى احد المطاعم حيث نتناول عشاءنا على نفقات الأوركسترا .

وكانت تلك أحسن وأصوب فكرة وخير ما فعلت والدتك .

ولله ما أعجبه من يوم حافل بالمفاجآت ! فما ان خرجنا من

المصعد حتى قابلناك .

– هل تأتي معنا لتناول العشاء معاً يا جان بول ؟ .

ولم يطل ترددك ، فلقد جئت معنا في الحال الى المطعم !

### الفصل الثالث

لقيت أمك لأول مرة في مارس عام ١٩٣٩ واسمها وقت ذلك

« اليس شافيرون » وكان كلانا في الحادية والثلاثين بفارق شهر

واحد بين عمرينا .

ولم يكن لربيع ذلك العام – بالنسبة لنا نحن أبناء ذلك الجيل

– أي شبيه بين سائر فصول الأعوام التي مرت بنا ، فقد جرفتنا

عواصف الأحداث العالمية المثيرة والأزمة الدولية المستحكمة ، وترك  
كل منا مدرسته وقريته ومصنعه الى بقاع في الجمهورية بعيدة عن  
من مسقط رأسه لم يحلم قط بأن يراها .

وكنت ضمن من شملتهم التعبئة العامة قبل ذلك ببضعة شهور  
« في خريف عام ١٩٣٨ » وأرسلونا لحماية الحدود من الغزو  
المرتقب ، واعتقد الكثيرون منا أنهم يودعون أهليهم الى غير عودة أو  
لقاء ، أما أنا - وكنت أحمل رتبة الملازم في احتياطي المدفعية فقد  
كلفوني السفر الى الفلاندرز ، وكان الطقس باردا والأمطار الغزيرة  
قد أحالت كل الطرق الى برك ومستنقعات ، فكل ما كنا نلمسه  
أو نرتديه رطب موحل حتى سيارات النقل التي تكومنا فيها  
كفرارات البطاطس وغرف الفنادق الخلفية الكثيفة التي كنا نضطر  
للتوقف فيها كالمساخيم علينا الظلام ، كل شيء كان يبعث على  
المرض !.

وكانا نقابل في طريقنا آلاف مؤلفة من المهاجرين : عجائز وكهول  
وسيدات في مقتبل العمر معهن أطفالهن ، الجميع يحملون ما خف  
حملة وغلا ثمنه هربا من الموت ، يمضون لياليهم مفترشين الأوحال  
ملتحفين بالسما ، هم أكوام من اللحم الأدمى المذعور المقرور ومئات  
الألوف من الأفواه الجائعة والبطون الفارغة يتركون طابعهم المميز  
في كل قرية أو مدينة أو حقل يمرون به كأسراب الجراد الشره ،  
يما تراه أينما أدت بصرك من اضطراب شديد في سوق المعاملات  
والطعام أو الأخلاق !

وأخيرا وصلت مع فرقتي الحدود البلجيكية حيث انتهى بنا  
المطاف في قرية هندكشوت .

وكنت أرى معالم الغضب واليأس المرير بادية على وجوه رفاقي  
الذين انتقلوا فجأة من حياة اللهو والترف والدعة الى العيش في  
الخنادق وخلف الأسلاك الشائكة ، على نقيض ما كنت أشعر به من  
السعادة الطاغية ، والرضا العميق والاستسلام للنهاية السعيدة  
مهما حدث ، بالرغم مما أحدثه تجنيدى المباغت من انقلاب خطير في  
نظام حياتي .

وكان قد مضى شهران على قبولى في وظيفة صغيرة في شركة



التأمين ، ولم أكن قد شغلت بعد تلك الغرفة الأنيقة التي تعرفها والتي لاحظت أن رفوف جدرانها مكدسة بالملفات والاضابير .  
وثق بأنى حينما ألحقت بتلك المؤسسة الشامخة بشارع لافيت ولم أكن قد تجاوزت الحادية والعشرين لم تكن لدى أدنى فكرة عن أعمال المحاسبين الاكثواريين، ولم أحلم قط بأن أكون خبيرا اكترواريا، فبعد أن حصلت على ليسانس الحقوق بدأت أدرس للدكتوراه فى القانون ، ثم اذا بى - وفى غمضة عين - وبسبب تلك الحوادث المؤسفة التي وقعت فى ١٩٢٨ الفيت نفسى مضطرا للبحث عن عمل اكسب منه قوتى ويساعدنى فى الانفاق على دراساتى .  
ووكلوا الى - بادىء الامر - تأدية بعض الأعمال القضائية الخفيفة تحت اشراف ذوى المران والخبرة من رجال القانون ، بالإضافة الى دراسة تدريبية فى ترتيب الأوراق فى الملفات والدوسيهات وتبويبها وتنسيقها .

وبذلت أقصى جهدى فى ان أثبت للجميع كفايتى ، وشمرت عن ساعدى وأقنيت نفسى وصحتى على حساب وقتى الذى كنت ادخره للدراسة ، فحزمت نفسى جميع الراحة والعطلات والأجازات وسهرات المجتمع ، مما أثقل كاهلى ، ولكنى لم أعبأ بذلك كثيرا ، ما كنت أكاد أنتهى من عملى فى شارع لافيت حتى أنطلق مباشرة الى غرفتى فى شارع لابراديس فأوصدها على نفسى ، أو ربما ذهبت لحضور احدى المحاضرات الأدبية أو الندوات الثقافية .

وقد لاحظ أبى شدة انزوائى ونحولى المستمر فطلب من شقيقتى ان تسترعى نظرى الى ذلك فقالت لى ذات يوم :  
- أراك تعذب نفسك وكأنك قد صممت على قتل نفسك !.

بيد ان ذلك لم يكن صحيحا تماما ، وان كان فيه شيء من الحقيقة !. لم أئس قط بل كنت أهفو الى تطهير نفسى والتكفير عن ذنوبى وبمعنى أكثر وضوحا ، كنت أعتبر روحى مدينة بالوجود لأبى ، وكان العمل الشاق المستمر وسيلتى التى اهتديت اليها للوفاء ببعض ديونى له . . .

وحين تقرر ترفيتى الى منصب قانونى كبير - ولم أتجاوز الخامسة والعشرين - رفضت تلك الترقية فى عناد ، وطلبت نقلى

الى فرع المحاسبين بوظيفة كاتب بسيط لا تمرن على الآلة الالكترونية الحاسبة ، ولا تدهش بي ولدى - كنت أجد لذة عميقة تفمر مشاعري كلما أهنت نفسي وأذلتها ، ولم أكن وقتئذ ماهرا في الرياضيات والمعادلات التي لم أعرها أهمية من قبل في اثناء انكبابي على دراساتي القانونية ، وكان على ان أهيب نفسي لعالم الرموز والأرقام، لاكون مثل تلك الآلة الصامتة التي لا تخطيء ولا تكل من العمل ليل نهار!.

وكانت غاية راحتي وسكينة نفسي وسعادتها كلما حججت الى قصر ماجالى في لوفيسينيه ، وسعدت بالنظر في عيني أبى ووجهه الحبيب الى قلبى كل أحد ، لأقضى معه لحظات قصارا ، وما كنت اتخلف قط عن موعدى ، على تقيض شقيقتى وزوجها اللذين كانا نادرا ما يحضران .

وهكذا . . كنت في عام ١٩٣٨ - اعد نفسي لدخول مسابقة الدكتوراه ، عاكفا آن ذاك على اعداد المراجع والمذكرات ، بالإضافة الى انى كنت أقوم في مكتبي بعمل جميع زملائي الذين قاموا بالاجازات الصيفية!.

وعندما بدت نذر الحرب في الجو السياسى ، وبدات كل الدول تتأهب وتعد نفسها لذلك تلقيت أمرا بارتداء الزي العسكرى والانخراط في سلك التدريب فورا .

كانت صدمة عنيفة قلبت مشروعات حياتى ، رأسا على عقب ، فبعد عشرة اعوام من الكفاح والعمل الكبير المتواصل الذى كنت قاب قوسين أو أدنى منه لاقتناص مستقبل مشرق مشرف يرفع رأس عائلتى ، واحقق فيه الطموح المتوثب في اعماقى ، واجنى فيه ثمرة تعبى أجد نفسي مرة أخرى وقد غدوت ضحية للزمن كورقة شجر يابسة تعبت بها رياح الخريف القاسية ، وفي مكان ما من الأرائى المنخفضة حيث الوحل والقاذورات ورائحة البارود والموت!.

وحتى هذه اللحظة أستطيع ان أرى بيوت قرية هندكشوت ذات الطابق الواحد ، وسيول الأمطار الغزيرة تختلط مياهها بالأوساخ . وأسمع رنين طاسات الجعة النحاسية في الحانات ،

وضحكات الجنود السكرى ورائحة العرق مختلطة بدخان التبغ  
وعن الخمور الرديئة ، كل ذلك يملأ أذنى وأنفى نلآن .  
و ذات مساء وفى الرابعة ، كنت أقف مع بعض الزملاء متشحا  
بمعطف فضفاض من الجلد الواقى من الماء ، فأقبل علينا أحد ضباط  
الجمارك مسرعا وقد احمر وجهه ولمعت عيناه ، أقبل يعدو وكأنه  
يطير فوق الأرض يكاد يتفجر من الלהفة والسرور ويصرح من أعماق  
قلبه :

– ابشروا يا أولاد ، الحرب انتهت ، ستعودون جميعا الى  
بلادكم !.

كان يقهقه فى جنون ، كما لو أصابته لوثة ، وكان وجهه مبتلا  
بماء المطر والدموع !.

كانت اتفاقية ميونيخ قد وقعت وعدت حقا وبعد أيام قليلة الى  
القصر المرمرى فى شارع لافيت . .

ولكن لم يكتب لهذه الاتفاقية أن تعيش طويلا ، ونم يكن هناك  
سلام كما ظن الناس – بل كانت خدعة من الخدع الكبرى وضحكا  
على الذقون ! . وكان ذلك نصرا لتجار الحرب والسلاح . ومضت  
كل جبهة تشحذ أنيابها وتستعد للموقعة الفاصلة تحت ستار كاذب  
من السلم ، أما أنا فلم أكن أبالى كثيرا ، بل لا تدهش إذا صارحتك  
بأنى كنت أرنو الى الموت والتضحية بحياتى فى سبيل الدفاع عن  
الوطن ، حتى اكفر عن خطيئتى وآثامى ، ولكنى ما كنت أعود حتى  
التهبت كليتاى ولزمت الفراش فى غرفتى بشارع اوغسطين طوال  
ديسمبر . . وبذل طبيبى جهدا كبيرا فى اقناعى بضرورة السفر الى  
« لوفيسينيه » لأكون تحت رعاية والدى فترة العلاج ، بيد أنى  
ضربت بنصيحته عرض الحائط ، وبقيت فى مكانى أسفل وقتى فى  
قراءة « مذكرات ساللى » كما أعدت قراءة مذكرات انكاردينال رتينز  
للمرة الثانية ، وكان أبى قد أهداها لى من قبل .

وحين عدت لأستأنف عملى فى يناير ، كنت ممتقع الوجه ضعيف  
الأعصاب غير متزن الخطوات ، ومع ذلك فقد صممت على مباشرة  
واجباتى مما هال زملائى وروعهم ، وأصروا جميعا على ضرورة  
قيامى باجازة مرضية .



واذ كنت أحمل في نفسي ذكريات جميلة منذ الطفولة عن مقاطعة جراسى بساحل الرفييرا - حيث كان أبى نائبا لحاكمها ، فقد اشتد بى الحنين للعودة الى زيارتها ، فحملت حقيبة ثيابى وبها بعض الكتب التى تبحث فى « تقدير الخطر بالنسبة لشركات التأمين » وانطلقت بمفردى الى مدينة كان ثم نزلت فى فندق سوقيه ، وهو مكان جميل يشرف على المدينة ويطل على البحر ، تحيط به أسوار عالية من أشجار السنط والكافور .

وكنت اقضى اكثر اوقاتي جالسا الى نافذة غرتى اتأمل القوارب البخارية ذات الألوان الزاهية تروح وتغدو فى الميناء الكبير ، واتمعن فى مياه البحر الزرقاء وأسطح البيوت القديمة المكسوة بالقرميد الأحمر حين تنعكس عليها أشعة الشمس الساطعة ، واتطلع فى شرفات العمارات الشامخة القريبة وما يدور فى ظلال غرفها من الداخل من مظاهر الحياة العائلية السعيدة .

وشعرت فى يوم شديد الحرارة ، شمس ساطعة ملتهبة ، باغراء شديد نحو البحر فانطلقت للاستحمام ، وكان ذلك خطأ كبيرا منى اذ أصابتنى حمى شديدة فى اليوم التالى ولم اشعر بشيء وتقلتنى سيارة الاسعاف الى مصحة ذات حديقة واسعة غناء . وهناك ، قابلت الممرضة اليس شافيرون التى أصبحت فيما بعد زوجة لى ووالدتك !

واننى حينما أصف لك تلك الحقبة من حياتى تفصيلا انما أقصد بذلك أن تبين عن جلاء ويقين ، ظروفى وقت ذاك ، كنت فى حالة نفسية لا أحسد عليها ، وحالتى الصحية فى غاية السوء بين الحياة والموت ، كذلك كان العالم كله فى مثل حالتى : شيخ مريض تنهيه الخلافات والأمراض والأحقاد ، يجلس على برمبل من البارود ويشهد فترة سلام قلق مهدد بالحرب والغناء ، ويحسن أيضا أن اعترف لك بأنى لم أكن خلال الأعوام العشرة السابقة قد تعلقت عاطفيا بأية أنثى لأسباب سوف تعرفها فيما بعد . .

ولا اكاد اذكر الا القليل النادر جدا عن أيامى الأولى فى تلك المصحة ، سوى انى كنت فى حالة هديان دائم ، أشهد خيالات كثيرة واحلم أحلاما مزعجة ، كنت أعانى مرضا خطيرا علمت فيما بعد

انه التهاب رئوى حاد كاد يوردنى حتفى ولم يكن قد تم اكتشاف  
البنسلين او مركباته فى ذلك الحين !.

وكانت بالمصحة ممرضات ذوات كفاية يتناوبن الخدمة ليلا  
ونهارا ، ويعمن بواجباتهن خير قيام .

بيد انى كنت لا اميل الى رئيستهن التى كانت تتحدث بلسنة  
روسية ، وأظن انها كانت إحدى المهاجرات الروسيات . وايضا  
لتكلفها الظاهر فى ملاطفتها للمرضى ، اما الثانية وكانت من بنات  
ذلك الاقليم ، وهى عانس قصيرة الساقين تنبعث منها رائحة زيت  
الخروج ، وفى الخمسين من عمرها فكنت أنفر منها بالفريزة برغم  
انها كانت تحدثنى كما كانت تفعل جدتى ، وتبالغ فى ترفقها بى وهى  
تضعنى فى فراشى وكأنى « فائزة » ثمينة من الكريستال !.

أما أمك فكانت أجملهن وجها وأرشفهن قواما وأكثرهن جاذبية،  
كما تراها اليوم ، وكما سترأها الى ما شاء الله ، لم ولن تؤثر فيها  
السنون والأعوام ما عدا خفة فى الحركة كانت تمتاز بها وقت  
ذاك ، لم يكن مبعثها رعونة أو طيشا ، بل أكبر الظن ، حيوية متدفقة  
مصحوبة بكثير من الاغراء والرغبة فى الاستقرار العائلى الذى كان  
ينقصها فى ذلك الحين !

أو لعلها كانت هى الأخرى تعانى ما كنت أعانيه ، وتذكر انا  
نعيش فترة ترقب وانتظار صدور الحكم بالاعدام على الدنيا  
بأسرها !.

رأيتها - اذن - لأول مرة خيالا أبيض بين ضباب الحمى ،  
وسمعت صوتها قبل أن أميز لها صورة واضحة المعالم .

كذلك هى ، حينما وقع بصرها على لم أكن الا مجموعة من  
العظام ، شبجا هزيلا يرتعش من رأسه حتى اخمص قدميه من  
شدة الحمى ويفطى جسمه العرق الفزير ، مجرد بأس ساقته  
المقادير مثل باقى المرضى الى تلك المصحة ، اذا امتد بى حبل الحياة  
وعشت ، فمرحبا والى سلامة ، وان مت قيدت اسمى فى سجل  
الوفيات ، وأبدلت اغطية فراشى لمريض يأتى مكاني فى الفسح ،  
ولكنها - برغم ذلك - وهو ما عجبت له فيما بعد - كانت تخصصنى  
بالكثير من العناية والرعاية حتى قبل أن تتوثق صلاتنا أو تعرف  
هنى شيئا !.

كذلك أحسنت بدورى - كما ذكرت لك - بميل قريب نحوها،  
لم أشعر به تجاه زميلاتها الباقيات .

وأرجو ألا تتسرع وتساء الظن فتحسب ذلك حبا ، فنحن لم  
تبادل الحب قط فى يوم ما ، بل كانت صداقة توطدت أوأصرها  
شبيهة بذلك النوع الذى ينمو بين جنديين فى عمر متقارب يعيشان  
فى خندق واحد بالخطوط الأمامية بميدان القتال ويتوقعان الموت  
فى أية لحظة . الأمر الذى يضطرهما - بحكم الظروف - الى رفع  
كل تكليف بينهما . .

وما زلت أذكر أول عبارة سمعتها منها :  
- لقد سمح لك الطبيب اليوم بقليل من حساء الخضراوات ،  
وكعكة ثم بعض المربى ، فهل تشعر بالجوع ؟ .  
ولا أخفى عنك أنه قد ضايقنى منها حيويتها الدايقة ، فكانت  
لا تستقر فى مكان ، تنجز عشرات الأشياء فى وقت واحد ! .  
واستطردت تقول وهى ترمقنى بعينيها الضاحكتين ، وأنا أتناول  
الطعام :

- لك اصدقاء أو أقارب هنا فى الرفيرا ؟ .  
- لا أعرف احدا بالمرّة .  
- وفى باريس ؟ ألسنت مقيما بباريس ؟  
- بلى ومع ذلك فلا أحد لى هناك ، ليس لى الا أبواى فى  
لوفيسينيه ! .

- أتعيش معهما ؟  
فهزرت رأسى نفيا .  
- سيتاح لك غدا أو بعد غد أن تكتب لهما شيئا .  
- أشكرك .

- ولم أعرف شيئا عن حياتها الا بعد فترة من الوقت ، فقد  
أعتادت أن تحضر لفرقتى وتجلس معى كلما سنحت لها فرصة  
فراغ ، وتترك الباب مفتوحا حتى تستطيع أن تسمع صوت الجرس  
الخافت الذى جعلوه خافتا حتى لا يزعج أعصاب المرضى أو يوقظ  
النائمين ، وكان ذلك الجرس يعمل باستمرار ، ودائما يقطع علينا  
حديثنا ، فتهب واقفة وهى تقول ضاحكة :

– انهم لا يستطيعون صبرا ، يخيل اليك أنهم قى آخر انفسهم!  
او تقول مثلا: هل رأيت ؟ انه رقم ١٧ يطلب الحقنة!

واستطعت – فى خلال ثلاثة أيام – ان احفظ اسماء كل  
مرضى الطابق الذى اقيم فيه ، من الجنسين دون حاجة لان اراهم،  
فقد كانت تحدثنى دواما عن كل فرد منهم وعن مرضه وطباعه .

وفوجئت بوفاة احدهم فى احدى الليالى ، وكان مريضا بمرض  
عباء ، ولم أستطع النوم بسبب الخطوات المتلصصة والهمس الدائر  
فى المر ونداءات التليفون ، ثم حركات عجلات النقالة ، وكنت قد  
لمحت القس وهو يمر ببابى فى الليلة السابقة يوسع الخطا وكأنه فى  
عجلة من أمره .

وكانت أليس شافيرون ممرضة السهرة ذلك المساء ، فلما  
اقبلت لزيارتى فى السابعة صباحا ، كان وجهها نضرا متألقا  
وابتسامتها رائعة ككل صباح!

– هل سمعت شيئا ؟

– أجل .

– انه سعيد الحظ فقد أراحه الموت من آلامه التى تفتت  
الأكباد ، ولا يفيظنى الا جحود اولاده الذين لم يكلفوا انفسهم عناء  
زيارته الا مرة واحدة منذ ثلاثة اسابيع ! ذلك برغم ان احدى  
بناته متزوجة وتقيم فى نيس ، وابنه يفتح جراجا للسيارات فى  
جراسى نفسها ، اتنى اعرف كل شىء عنه ، فهو لاجىء ايطالى جاء  
لهذه المدينة جائعا مقلسا وبدأ حياته فى أعمال البناء ، أما الآن فهو  
تارك لهم ثروة ضخمة يسيل لها اللعاب ! وسوف تراهم حينما  
يسمعون بوفاته يهرعون نحو جثته يتباكون ويندبون بالموسيقى  
وأعذب الألحان!

ورمقتنى بعينيها الباسمتين ثم أضافت ضاحكة:

– هل ازعجتك رؤية الموت ؟

– كلا .

– انه صدمة لدوى الأعصاب الضعيفة من المرضى ، مما يجعلنا



مضطربين الى التزام الهدوء وعدم احداث اى صوت او حركة ما  
امكننا .

وسألتها : وأين هو الآن ؟

- فى الطابق السفلى لدينا غرفة خاصة بالموتى فى البدروم .  
- هل تعملين فى التمريض منذ امد طويل ؟  
- حصلت على الدبلوم منذ اعوام ثمانية ، ولكنى الآن فى مثل  
همرك !

- وكيف حدثت عمري ؟

- مكتوب على تذكرة سربرك ، انت تكبرنى بشهر وثلاثة  
ايام !

وكان طقس الظهيرة ساخنا ، فتركت نافذة غرفتى مفتوحة  
واستطعت أن أرى من خلالها قمم أشجار الكافور العالية وزرقة  
السماء الصافية ، ولم أكن قادرا على القراءة او تأدية اى عمل  
سوى انتظار زيارة الطبيب مرتين فى اليوم بعد تنظيف الغرفة  
وتنظيفى أنا ايضا ، وترقبى مواعيد الطعام بفروغ الصبر .

ولعل فترة « تواليت الصباح » كانت احلك لحظات حياتى  
محنة حقيقية اجتاز فيها حلقات من الخزى والخجل العميق ، وما  
ان تنتهى الممرضة من ان تستبدل بملابسى اخرى جميلة الرائحة  
بعد ان تفسل جسمى بالماء الدافىء والصابون ، وبعض الكولونيا  
ثم تضعنى وسط الاغطية الجافة الجديدة ، حتى اتهد فى ارتياح  
شديد ، وأشعر كأنى قد ولدت من جديد !

وكنت قد ارسلت بطاقة لآبى وامى اصف فيها سرورى من  
رحلتى الجميلة ، دون ان أشير لمرضى ، وكانت اليس شسافيرون  
تذهب الى فندقى وتحمل لى الخطابات التى ترد باسمى الى  
المصحة .

ولم يدربخلد أحد منا اننا سنربط معا بذلك الرباط الأبدى  
بل أكاد أقسم أن احدنا لم يكن ينظر للآخر الا كما ينظر الانسان  
الى رفيق له فى السفر فى باخرة او قطار او فى حجرة انتظار !  
ولم أكن قد عرفت من أمرها شيئا بعد ، بل حتى حين عرفت

لم يكن ذلك دفعة واحدة ، بل كان قليلاً منه في مدينة « كان »  
بالمصحة ، ثم خلال أيام نقاهتي ، وأخيراً خلال فترة زواجنا .

كان أبو والدتك نورمانديا ممن يحملون اسم غليوم ، ويزعم أنه  
ينحدر من سلالة وليم الفاتح ، ولد في فيكامب بشارع ديثريثيات ،  
من أسرة متوسطة الحال حيث كان أبوه يعمل حارساً لعنابر تخزين  
الخمور .

وكان رجلاً ذكياً منذ طفولته تفوق على أقرانه مما شجعه بفضل  
المساعدات المادية التي قدمها إليه أصحاب المصانع على أن يواصل  
دراساته ، وكان النجاح حليفه من مدرسة لأخرى حتى حصل على  
البكالوريوس في التاريخ ، واشتغل مدرساً في الليسيه .

ولم تولد أمك في نيس ، بل في بورجي ، حيث عمل أبوها في  
بدء حياته ، وحين كانت في الرابعة من عمرها ، نقلوه إلى الرفييرا  
- ولا تضحك إذا ذكرت لك أن أبي - في تلك الفترة بالذات ، كان  
حاكماً عاماً لمقاطعة لاروشيل .

وعندما ضاهينا الأوقات معا : اكتشفنا أننا كنا نعيش في  
الرفييرا - وكلانا بين الخامسة والسادسة - لا يبعد أحداً عن الآخر  
بأكثر من أميال قليلة : هي في نيس ، وأنا في جراسي . وقد مكثت  
هي أما نحن فقد رحلنا .

أتذكر يوم أن كنت معنا في رحلة بالسيارة ومررنا ببيت أحمر  
قديم عريض الواجهة متعدد الغرف والطوابق ، وتبادلت أنا وأمك  
النظرات ؟ ذلك هو بيتها الذي ولدت فيه ، وما زالت جدتك به وقد  
أمست عجوزاً درديسا ، وكانت قد أشارت لي عليه في مرة سابقة ،  
أنه أحد البيوت ذات الطراز الإيطالي القديم التي تزخر بها الأحياء  
القديمة في المدينة فيما بين ميدان مسينا والميناء الكبير ، وإذا مررت  
بتلك البيوت في الظهرية حسبته من نوافذها المفلقة مهجورة خالية  
من الناس ، وما إن يحل المساء حتى تلفظ ما في بطونها وتطن كل  
غرفة بالأدميين كخلايا النحل ، ثم ينتشروا على أعتاب البيوت  
ويجلسوا في أركان الشوارع يزحمون أرضفتها حتى ساعات متأخرة  
من الليل .

وهذه الجدة : هل تذكرها ، وقد زارتنا منذ عدة سنوات قبل  
أن يقعد بها المرض ؟

كانت في شبابهها نموذجا رائعا في الجمال تحترف بيع السمك  
فوق عربة يد تدفعها في ذلك الحى الشعبى من مدينة فيكامب ،  
فهل تراك قد افزعتك هذه الحقيقة التى قد تضىء لك الطريق فى  
فهم والدتك ؟ .

كانت جدتك تكافح فى سبيل العيش ، بعد ان تلقت شذرات  
من العلم لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ثم اصبحت ذات يوم زوجة  
للمدرس شافيرون الذى ينحدر من غليوم سليل الامبراطور وليم  
الفتاح الذى دوخ أوروبا !

وكانت الجيرة كلها تحسدها على ذلك ، وقد اكتسب زوجها  
مهابة وجلالا ، يرمقونه بكثير من الاحترام وهم يستوقفونه فى  
الطريق ليقرأ لأحدهم خطابا او يستكتبه آخر رسالة له ، او  
ينتدبوه لاجراء مصالحه او فض نزاع او مشاجرة . .

ولم يسعدنى الحظ برؤية مسيو شافيرون قط ، اذ كان قد  
فاجته نوبة قلبية قضت عليه قبل ان اذهب الى مدينة « كان »  
ببضعة أعوام ، لكنى سمعت الثناء العاطر عليه ممن عرفوا فضله  
وعلمه ، كذلك شاهدت مجموعة من صوره الشمسية ، كان يبدو  
فيها متجهما عابس الوجه ينظر من تحت انفه فى كبرياء وانفة  
واستعلاء .

ويخيل الى انه لم يكن موقفا فى زيجه من بائعة السمك الفاتنة  
وخاصة بعد ان صار ابا لأربعة اطفال ، كانت أمك صـفـراهن ،  
وتضاعفت نفقاته ولم يكن له دخل سوى راتبه المحدود ، لا يكفى  
الحياة فى المستوى اللائق بمركزه امام تلامذته ، مع المحافظة على  
مكانة الأسرة التى انحدر منها ، بـويـقـينا ، كان جيرانه الفقراء الذين  
ينامون على الطوى اسعد منه حالا مع صخبهم المتواصل ومشاجراتهم  
التي لا تنتهى ، لأنهم اعتادوا ذلك النمط من الحياة المتقشفة  
لا يشكون ولا يتبرمون بل كانوا راضين قانعين !

وكل واحد من أبنائه الأربعة قد شق طريقا يختلف عن الآخر :  
أكبرهم « اميل » انخرط فى البحرية وهو فى السابعة

عشرة ، ثم تركها بعد خمسة أعوام الى مدغشقر حيث انقطعت  
خطاباته عنا ، ولم نسمع عنه الا ما حمله بعض الموظفين العائدين من  
انه قد تزوج احدى بنات الجزيرة وانجب منها ثمانية او عشرة من  
الأولاد .

وامك لم تذكره قط امامك ، حتى لا تحتذيه مثالا .  
اما جان - الابنة الكبرى - فقد تزوجت بدالا ايطاليا كان  
يفتح محلا في « غتبي » ثم افلس فأغلق ابوابه ورحل معها الى  
الجزائر ، وهناك تشاجرا فحصلت على الطلاق منه ثم تزوجت  
انجليزيا وما زالت تقيم معه في ديفونشير  
وتليها - لوزا - التي دخلت الدير .

وكانت أمك قد أنهت دراستها واجتازت امتحان الكفاءة  
« البوشو » والتحقت وهي في السابعة عشرة عاملة على آلة  
الكتابة في احدى وكالات التصدير ، ولكنها قررت فجأة وبعد عدة  
شهور أن تغير مجرى حياتها وتدرس التمريض ، واذ هي التي بقيت  
دون أخواتها في الدار ، فقد وجدت من والديها ارتياحا وترحيبا  
وتشجيعا على مواصلة الدرس والتحصيل .

ولست أدري لماذا تركت فجأة عملها الكتابي المريح ؟ ولكني  
كلما سألتها عن ذلك احمر وجهها وقالت في ضيق :  
- كنت وقتئذ أوزة حمقاء ، رأسي مشحون بالأحلام السخيفة ،  
وعنا لا نذكر ذلك الماضي !

مما يجعلني اوقن أن ثمة اشياء خطيرة قد حدثت لها ، وهي لا  
تحب أن تستعيد ذكرياتها .

وعندما حصلت على دبلوم التمريض رفضت أن تعمل في نيس ،  
وذهبت لتعمل في مستشفى باريس ومعها توصية من بعض  
الأصدقاء الى الأستاذ الكبير (ب) اعظم اطباء القلب ، والذي لا تزال  
كتبه تدرس في جميع انحاء العالم ، وتحدث عنه الدنيا كأعجوبة  
الجيل برغم حداثة سنه .

وكانت أمك في الثانية والعشرين اكثر جمالا وشبابا مما هي  
الآن ، وتحدث بلكنة اهل الجنوب التي تشنف آذان الناس في  
باريس ، وكان هو في السادسة والاربعين - في مثل عمري الآن .



وهنا اتوقف قليلا لارجوك الا تتسرع فى اصدار حكمك عليه  
بحتى تصل انت لهذه السن ، فاذا حسبت ان الانسان يستطيع ان  
يسيطر على قلبه فى الأربعين ، فانت واهم .

ومن اليسير ان نحدث ما حدث ، وسوف تستطيع ان تفهمه  
بنفسك ذات يوم ، فمما لا ريب فيه ان الأستاذ (ب) قد اغرم بها ،  
ولولا مذهبه الكاثوليكي ووفاء قديم لزوجته - لسارع الى طلاقها  
والزواج من ( اليس شافيرون ) مرضته الحسناء .

أتري ؟ هل كانت من جانبها تحبه ؟ لست واثقا من ذلك ، ولكن  
من المؤكد انها كانت تحمل له اعجابا عميقا ، وتتفانى فى الوفاء  
والاخلاص الشديد له . .

وامضت فى المستشفى عامين كاملين ، ولا يهمنى ان اناقش  
كيف ومتى كانا يجتمعان فى ذلك الجو المليء بالطلبية والمرضى  
والاطباء والزوار وغيرهم ؟ .

ولعل مصادفات الزمن هى التى لعبت دورها الكبير فيما حدث  
بعد ذلك .

فقد كان للأستاذ الكبير طبيبة مساعدة تعاونته فى ابحاثه داخل  
معمله الخاص فى داره ، سيدة مطلقة فى الخامسة والثلاثين لم  
يشك مخلوق فى انها لشدة تفانيها واخلاصها وحبها لعملها ،ترك  
أستاذها حتى تموت ، لكنها التقت بأرمل ثرى كان يتردد على  
الأستاذ للاستشارة والعلاج فأعجب بها ، ثم تزوجها .

ولم يكن ثمة مناص من أن تحل أمك محلها ، وانتقلت للاقامة  
بشارع ( ميرونسيل ) حيث بيت الأستاذ وزوجته التى كانت مريضة  
بمرض غير قابل للشفاء ، لم يقدر لها اكثر الاطباء تفاؤلا ازيد من  
خمس أعوام !

ولو مضت الحوادث فى مجسراها الطبيعى لكانت أمك هى  
السيدة حرم الأستاذ ( ب ) حتى هذه اللحظة !

كان ذلك أمرا مسلما به معروفا للعامة قبل الخاصة ، كذلك  
الجميع اصدقاء الأستاذ وزملائه وعارفيه ، وأيضا لزوجته التى لم  
يكن يشغل بالها سوى صحتها وإيائها المعدودات !

ولما كانت ظروف الأستاذ تضطره أغلب الأيام للسهر فى معمله طول الليل فقد أعد لمساعدته غرفة نوم فى المبنى نفسه حتى تكون قريبة منه توفر له ما يطلبه وتلبى نداءه فى أية لحظة ، وبمضى الأيام استولت أمك على مقاليد البيت وامتلكت جميع أعماله وشئونهم ، وأصبحت سيدته الأولى .

وشهدت بداية عام ١٩٣٨ أمك وهى فى الثلاثين من عمرها مطمئنة تماما الى مستقبلها الذى أرست قوائمه وثبتت دعائمه ثمانية أعوام كاملة بالعرق والدموع ، واذا بالأقدار تضحك منها ساخرة ، وتقبل احدى السيارات العامة بسرعة فتصدم استاذها وهو خارج من باب المستشفى الكبير فتقتله على الفور !

ولست أدري ما فعلته أمك عندما بلغها ذلك النبأ ، وكل ما أعلمه أنها سارعت فخرمت حقائبها فى التو والساعة وغادرت المدينة كلها الى غير عودة ، ودون أن تلقى نظرة على جثة الحبيب قبل أن يواروها بالتراب !

ولا بأس من أن تعلم أن مدام (ب) قد عاشت ست سنوات بعد ذلك ، وآلت ثروة الأستاذ الضخمة الى اقارب ارملة « وتقدرون فتضحك الأقدار ! »

\* \* \*

وفى اللحظة التى كنت اخوض فيها الوحل فى طريقى الى الفلاندرز ، كانت اليس شافيرون تحط رحالها فى مدينة كان ، حيث كانت هناك وظيفة شاغرة تنتظرها فى المصحة .

ولم يكن فى صوتها وهى تقص على تلك المرحلة الحاسمة من حياتها ما ينم على أى اسف أو حزن ، وكنت وقتئذ أجلس قريبا من النافذة حيث كانت تقف مستندة الى افريزها بثوبها الأبيض ، وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها ، وأفلتت من شعرها بعض إخصلات ناعمة خفيفة كان النسيم الهادى يداعبها فى رقة فوق صفحة جبينها الوضاء .

كان صوتها خاليا من أى اثر للانفعال أو التأثير ، كما لو كانت تقرا لى قصة امرأة أخرى فى كتاب بين يديها ، وهى تنظر الى

الحديقة تحتها فى شرود حيث كنت أسمع خطوات بعض المرضى يسرون فوق حصى المشى .

وفى اللحظة التى ختمت فيها قصتها سمعنا نزيلة الغرفة ١٤ تدق الجرس ، وكانت قد حضرت فى الليلة السابقة لاجراء جراحة عاجلة ، فابتسمت أليس شافيرون وهى تقول وكأنها قد استيقظت لتوها من حلم جميل :

— دنيا عجيبة ! أليست كذلك ؟

وبعد ذلك ، بعد ذلك بأيام كثيرة جدا ، كنت أسترجع فى ذاكرتى تلك القصة بكل دقائقها وتفصيلاتها ، وجعلت أديره وأقلبها فى رأسى مرات ومرات ، ولم أشعر بأية غيرة أو مرارة فى حلقى ، فاذا كانت قد ارتكبت خطأ فكلنا قد اخطأنا ، وأنا بنفسى قد اخطأت ذات يوم وكفى المرء نبلا ان تعد معاييه !

ولقد حدثتها أنا أيضا بما وقع منى ، وهو ما سأسرده عليك بعد قليل ، فأبدت عظفا شديدا على قضيتى ، ومن سمع مصيبة أخيه هانت عليه مصيبته !

اذن ، كان كل منا يفهم صاحبه تماما ، وكلانا ناضج رشيد ، وحتى لو كنا تؤمن بالحب ، فكنا نعلم ان ما بيننا لا يمكن ان يكون حبا ، بل أصح وصف له انه تفاهم أرفع درجة من الصداقة العابرة .

ومع ذلك فمن الثابت انه لم يخطر ببالنا فكرة الزواج قط وقت ذاك .

ولا شك أننا كنا نفكر معا . على نسق واح

فليس منا من هو مرتبط بخطبة او زواج . والعالم امامنا يرقص على برميل بارود ، لا يعلم احد متى ينفجر ، وان كانت الدنيا كلها تؤمن بأن الانفجار محقق واكيد وقريب ! وعندئذ لن يبقى ولن يلد ! واذا ما فترقنا ، فهو فراق لا لقاء بعده ، فأنا فى طريقى لوحدتى فى الجبهة الشمالية حيث أنا ملاق لامحالة حتفى ، واذن فمهما يحدث بعد ذلك فهو قليل الأهمية عديم الأثر !

ولعل ظروف مرضى وعجزى وقيامها عنى بحكم طبيعة عملها ،  
بأدق الأشياء وأشد الخدمات حرجا لى ، قد سهل من تفاهمنا ،  
وعجل فى تقاربنا ، وما كنت أشعر فيه بالخزى والخجل ، صان  
أمرا عاديا وطبيعيا دون أى تصنع أو تمثيل .

وعلى فكرة ، كل تلك الأحداث لم تستغرق وقتا طويلا ، بل  
حدثت فى وقت وجيز جدا ، إذ أن مدة إقامتى فى المصححة لم  
تتجاوز ثلاثة أسابيع .

ومع ذلك فقد كان يخيل الى كائى أقمت فيها جزءا كبيرا من  
حياتى لكثرة الذكريات التى ثبتت صورها فى قلبى ، كل ركن  
ومقعد ونافذة وصوت فى المستشفى . حتى رائحة الكافور التى  
كانت تختلط برائحة الجعة .

وكنت أتصور أحد الباعة هنالك بين تلك الطرق الضيقة التى  
تنحدر من التل الذى كانت تشرف عليه مصححتنا فقد كنت أسمع  
طوال الليل أصوات البراميل وهى تتدحرج بعضها ممتلىء وبعضها  
فارغ ، وصممت على أن أتبين حقيقة الأمر عندما أغادر المكان . .  
ولكنى نسيت ذلك تماما مثلما نسيت أن أذهب لاتفرج بمدرسة  
البنات القريبة منا والتى كانت تنبعث منها تلك الضحة الحبيبة  
الى النفس والصيحات الرنانة المرحة مرتين كل يوم فى أوقات  
الفسح بانتظام .

وكان أحد المرضى . وهو كهل يتوكأ على عكاز ويرتدى منامة  
فوقها روب من الحرير ذو ياقة زرقاء أعارتها إياه إدارة المصححة  
اعتاد كلما مر فى المشى أن يتمهل أمام باب غرفتى ، فإذا كان  
الباب مواربا ، دفعه بطرف عصاه حتى ينفتح على مصراعيه ،  
وعندئذ يقف على العتبة برهة طويلة ينظر الى واجما صامتا ، ثم  
يهز رأسه وقد بدا عليه أسف عميق وينصرف !

وكنت أحسبه بادىء الأمر مخبولا به مس من الجنون ، أو على  
أقل تقدير لا يقوى على النطق . . ثم تبين لى بعد أن أوشكت مدة  
إقامتى أن تنتهى انه فى كامل عقله كما أنه صاحب صوت موسيقى



عظيم ، ويعمل بالأوبرا « تينور » وكان يقيم منذ ثمانية شهور لاجراء عدة جراحات متتالية ، ولم اسمع صوته الا حين كنت احزم حقائبى فقد قال لى وهو يقف بباب غرفتى بصوته العريض :

— اتمنى لك حظا سعيدا ايها الشاب !

ثم هز رأسه بطريقته الخاصة ، ومضى ! .

وكانت امك تستأجر شقة مفروشة تتكون من غرفة للنوم واخرى للجلوس ملحوق بها مطبخ وحمام فى الطابق الاول فى منزل على قمة ميدان « القومندان ماريا » وفى مواجهة احدى الصيدليات .

وكتبت لابوى بضعة سطور مشيرا لمرضى مهونا الامر ما استطعت حتى لا اسبب لهما قلقا او انزعاجا ، كما ارسلت خطابا لشركة التأمين التى سمحت لى بأجازة اضافية ونصحتنى بأن اعتنى بصحتى ، وعدت الى غرفتى بفندق « سوقيه » .

وكانت الزهور قد اينعت وازدانت بها الحديقة التى كانت تبدو كبساط سندسى اخضر جميل ، واتاح لنا الجو الدافئ الجميل ان نجلس معا فى الهواء الطلق لتناول الغذاء ، اذ كان عيد الفصح على الابواب ، وبدأت القرية تمتلئ بوفود الزائرين ويزدحم بهم مشرب الفندق وشرفته .

ومضى شهر كامل ، ثلاثون يوما دون ان اقبل والدتك او بخطر ذلك بيالى ، وكنا نتقابل فى اوقات فراغها ونذهب للسينما وهو امر لم افعله مع امرأة ، منذ كنت فى التاسعة عشرة او ننطلق معا الى جزيرة ليرين فنمشى جنبا الى جنب بين اطلال قلعتها القديمة وتحت ظلال اشجار السنديان والزيزفون ، ثم نجلس فى النهاية فوق صخرة عالية نتأمل امواج البحر وهى تتعانق فى سرور وجدل .

وربما خطرت الفكرة بيالى فعلا ، ولكنى لم اخذها ماخذ الجد ، وكنت اقول لى : ولم لا ؟  
ومما تطيب له نفسى ان اشعر الان انها كانت تفكر فى الشئ نفسه . وانما بطريقة اخرى .

انها لا تموت في حيا ، ذلك امر مفروغ منه - ولكنها تألف  
الخروج والجلوس معي دليلا على شعورها نحوي بالارتياح والود  
وتضحى بأوقات راحتها برغم كثرة مشاغلها وعملها المضني في  
سبيل قضائها معي ، وكنا نجد في ذلك تسلية وتسرية عن النفس  
وسعادة لاتوصف بلقائنا .

وكانت ظروفها عسيرة ومعقدة .

فوالدها الذي كان أبوه عاملا بسيطا ، كافح ليطفو على  
السطح ، وأمسي في النهاية مدرسا محترما ترمقه العيون ، كان  
يرجو أن يحذو وحيدته حذوه ويصير طبيبا أو محاميا ، لكن آماله  
قد خابت فيه « أقصد ذلك الفتى الذي هرب الى مدغشقر ولم  
يصب من العلم شيئا » كذلك شقيقتها : لا شك في أنهما بنلا  
أكثر ماتستطيعان في سبيل الارتقاء لكنهما فشلتا ماعدا زوجة  
البقال التي لم ترض بحياة الفقر ، فطلقت ثم تزوجت الانجليزى  
صاحب مزرعة في ديفونشير .

وهي لم ترض ان تظل طول حياتها أسيرة مكتب ضيق تعمل  
على الآلة الكاتبة ، وقد ورثت عن أبيها الطموح ، فانطلقت بخطوات  
سريعة نحو تحقيق أكبر آماني العمر وأحلامه . واوشكت أن تكون  
زوجة للأستاذ الكبير تتسلط عليها الأضواء ، وتنحنى لها الهامات  
تقبل اناملها ، ولكن الزمن الساخر شاء أن يلعب معها لعبة الثعبان  
والسلم ، فاذا بها تنحدر هابطة في عنف وقسوة . درجات كثيرة  
الى القاع لتبدأ الكفاح من جديد !

وحينما لقيتني لا شك أنها وضعتني في ميزان دقيق .

فأنا - وان لم أكن الا خبيرا اكتوبريا - مركزى محترم وأحمل  
شهادة عالية ، وأمامى مستقبل باسم يبشر بالرقى العاجل والمنصب  
الرياسى الكبير .

وعلى أية حال ، أستطيع ان أؤكد لك انها حتى ابريل عام  
١٩٣٩ لم تكن تفكر في أى شيء من ذلك .

وذات يوم - في ابريل عام ١٩٣٩ - على حين كنا نأكل اطباقا  
شبيهة من السمك المدخن ، في حديقة فندق سوقيه ، وكان على

المائدة المجاورة عروسان تتشابك أيديهما في ود و صفاء - سمعت  
نفسى أقول فجأة :

- ماقولك فيما لو عقدنا زواجنا ؟

وكانت المفاجأة بالنسبة لها شديدة غير متوقعة ، فبهتت  
لحظة ، وأصابتها رعدة قوية كما لو مسها تيار كهربى ، ثم ما لبثت  
ان انفجرت ضاحكة وهتفت فى جدل :  
- يا لها من فكرة رائعة ! ونسعد بالاقامة معا الى الابد !

وظللنا فى حديثنا الفكاهى المرح وتعليقاتنا الساخرة حتى  
انتهينا من طعامنا وأوصلتها حتى باب المصحة ، فقد كانت نوبتها  
تبدأ من اثناية حتى العاشرة مساء . ثم عدت الى غرفتى ،  
واستفرقت فى قراءة كتاب فى الاجتماع وتناولت عشائى فى  
غرفتى .

وخرجت من الفندق فى العاشرة ، وفى العاشرة والرابع تماما  
كانت قد وصلت شارع ( القومندان ماريا ) - وانتظرنها حتى  
اخرجت المفتاح من حقيبة يدها وكادت تضعه فى ثقب الباب ،  
فبرزت لها من الظلام .

فقال فى هدوء : - اوه ! أهذا انت ؟

- شعرت بانى فى حاجة لأن ابادل معك حديثا جديا ، فأرجو  
ان تسمحى لى بالدخول لحظة .

ولم تتردد ، أو تصطنع موقفا تمثيلىا مسرحيا ، بل ادارت  
المفتاح فى القفل بحركة طبيعية واعصابا هادئة وحينما هممت  
بالدخول أسرعت تقول :

- نصف دقيقة ، دعنى اطمئن الى نظافة المكان !

وسمعتها وهى تضغط على مفاتيح النور فى كل الغرف ؟  
لم وهى تلقى ببعض الثياب والملابس القطنية فى صيوان :  
- تستطيع الآن ان تدخل .

وكانت الشقة توحى لأول وهلة بأنها كانت تؤجر دائما لنسوة  
من طراز خاص :

غرفة الجلوس بها أريكة قديمة متهالكة ومقعدان ومائدة  
و « بوفيه » طويل من طراز هنرى الثانى ، والجدران تغطيها صور  
ورسوم بعضها غير محتشم .  
ولاحظت ما أصابنى فقالت موضحة :

- الساكنة قبلى كانت احدى الراقصات فى ملهى ليلى وكانت  
مولعة بلصق صور الغلاف لبعض المجلات الخليعة على الجدران .  
اتشعر بالظما ؟ .  
- كلا .

- ولا انا ، وهذا افضل ، فلست ادخر الا قليلا من الشراب  
ربما فسد مذاقه .  
اكانت تعلم سبب زيارتى ؟ يحتمل جدا .  
قلت لها : كنا نتحدث فى اثناء تناولنا الغذاء فى موضوع  
زواجنا .

وكنت أحاول أن أفتح الموضوع بطريقة سهلة .  
- ومنذ أن افترقنا وأنا افكر فى الموضوع تفكيرا جديا .  
وكان ذلك حقا وصدقا ، فلم أستطع تركيز انتباهى فى الكتاب  
الذى كنت اقرؤه .

- ولقد حضرت لائبيك باختصار اتى لم اكن هازلا ، وحيثما  
ادرت الفكرة فى كل اتجاه لم اجد سببا واحدا يقف فى طريق  
زواجنا ، فنسعد ونمرح كباقي المخلوقات .  
فقلت وهى ماتزال تضحك هازلة : ولم لا ، حقا ؟

- فكرى فيما اقول ! ان ما يعرفه كل منا عن صاحبه فى الايام  
القليلة الماضية ، ليزيد كثيرا عما قد يعرفه اى خطيبين مضى على  
تعارفهما عام كامل .

وصمت برهة ريثما التقط انفاسى ثم اردفت قائلا :  
- انصتى الى بربك ، لن اكذب عليك او احاول خداعك فامثل  
امامك دور المحب المدنف المدله الذى يقدم قلبه فوق صينية من  
الذهب مثلما نقرأ فى الروايات او ترين فى السينما ، كذلك انا  
لست اتوقع منك شيئا من هذا القبيل .



وخالجنى احساس بأنها متوترة الأعصاب من طريقة ضحكها  
واستمرارها في سخريتها .  
- زواج الفلاسفة اذن ؟

- بل رباط بين صديقين يحترم كل منهما الآخر ويسعد  
بلقائه ويهنأ بقربه ، زوجان يتعاونان على المضي جنبا الى جنب  
بقية الطريق !

وعندئذ بدا عليها الجد والاهتمام .  
- يسعدنى ان اسمع ذلك يا آلين ، وانى لجد شاكرة لك .  
- لست ممن يهتمون بالجسد .

وقد اخبرتنى فيما بعد ، انها ضحكت طويلا لسماعها ذلك  
وخاصة اللهجة والطريقة اللتين اتبعتهما وجفول بصرى حينما  
وقعت عيناي بالرغم منى على الصورة الكبرى الملتصقة فوق الأريكة  
افقد هبطتا فورا الى مواقع اقدامى خزيا ورعبا فى حركة طفلية .

ولم يحدث بيننا ما يخذش الحياء تلك الليلة ، او فى الليالى  
التالية طوال الأسابيع الثلاثة التى أمضيتها فى الرفيرا .  
وحين أقبلت تودعنى فى المحطة ، لم أكن قد تلقيت منها جوابا  
شافيا .

- سنرى هل أحدنا يشعر بالوحشة والحنين للآخر بعد ان  
تفترق شهرا كاملا ؟

ولم اكتب لها خطابا كاملا طوال ذلك الشهر مكتفيا ببطاقة  
يومية أشبه بنشرات الطقس كانت تحمل جملة واحدة  
« اليوم الخامس : ما زلت مصرا » .  
« اليوم السادس : ما زلت مصرا » .

وهكذا .. حتى التاسع والعشرين اما فى اليوم الثلاثين -  
بوكان يوم سبت - فقد ذهبت لاستقبالها فى محطة ليون ، ورافقتها  
لالى افخم الفنادق بميدان جراند اوغسطين ، حيث حجزت لها  
لغرفة .. تعلقو غرفتى .

وذهبتنا - فى اليوم التالى - الى ( لوفيسينيه ) بعد ان

حذرتها سلفا انها لن تسمع من أمي حرفا واحدا حتى لا تستاء أو  
تسيء فهمها .

وكان والدي في غاية الرقة واللفظ ، فهو هو الرجل الذي  
حنكته التجارب وعرفنا عنه النبيل والشهامة طوال حياته الماضية ،  
وعقدنا زواجا مدنيا في قاعة مجلس المدينة ، وقبل أن نعثر  
على شقة خالية للايجار .

وحيثما أعلنت الحرب العالمية الثانية كنا لانزال نقيم في  
الفندق نفسه ، وفي غرفتين متجاورتين هذه المرة ، بينهما باب  
متوسط ، جعلنا الغرفة الأولى للنوم ، ورفعنا الفراش من الأخرى  
وأعدناها لتكون غرفة جلوس .

ومرة أخرى ارتديت ملابسى العسكرية ، وانطلقت للجهة  
الأمامية ، ولكنى سعدت بمنديل حريري يلوح في الهواء فوق  
رصيف المحطة .

### الفصل الرابع

عدت مرة أخرى الى هندكشوت . الوجوه القديمة نفسها  
والحانات نفسها حيث تراق أنهار من الجعة ، وكان هناك أيضا  
ضابط الحدود ذو الشعر الأصفر الذي سبق أن بشرنا بالسلام ،  
ولم تكن بلجيكا قد دخلت الحرب بعد ، ولم يكن مسموحا لنا عبور  
الحدود ذات الألوان الأسود والأزرق والأحمر والتي كان جنودنا  
يتكئون عليها للحديث مع بعض المارين .

ومضت الأيام والأسابيع في بقاء السلاحفة على حساب  
أعصابنا المتوترة ، وكان جيش العدو يربط على الجهة الأخرى  
من خط ماجينو . يتبادلون الدعايات مع قواتنا من خلال أجهزة  
الصوت الكبيرة .

وحيثما حصلت على اجازتى الثانية وجدت أمك تنتظرني في  
محطة الشمال ، ولاحظت قبل مفادرتي القطار - انها حامل .  
وكانت ترتدى معظفا بنى اللون تركت ازواره مفتوحة .  
ويبدو إن دهشتي كانت واضحة على محياى ، فبعد أن

لإبدالنا القبلات في صمت قصير ؟ سألتني في لهفة في وسط  
الزحام وضجة المستقبلين والمودعين على الرصيف : « اغضب  
أت ؟ »

فضفت على يديها التي كانت باردة كالثلج ، ثم هزرت رأسي .  
وما كان من حقى أن أشعر بأى غضب أو دهشة أو استنكار ؛  
إفالحمل ما هو الا نتيجة طبيعية لكل زواج ، وكان ينبغي أن أتوقع  
حدوثه ، ومع ذلك فقد أذهلتني المفاجأة ، وأحسست كأن ثمة  
شيئا غامضا لم أستطع تبينه مافتىء يضرب مؤخرة رأسي وكأنه  
مطرقة قوية تفرع بابا موصدا .

« سوف يكون لى ابن »

أما لماذا يكون ابنا وليس بنتا ؟ فذلك ما لم أعرفه !  
وأضيت أيام الأجازة الثلاثة فى فندقنا بميدان أوغسطين  
الأكبر ، قمت خلالها بزيارة لمؤسسة التأمين بشارع لافيت ، اطمئن  
إيها على الأعمال التي كانت تمضى بإطراد كالمعتاد داخل المكاتب  
في طريق سيرها المرسوم .

\* \* \*

لم أكتب شيئا أمس ولا أول أمس ، برغم أنى أغلقت على  
نفسى الباب معتكفا ساعات طويلة فى مكتبى أستعيد فى نفسى  
ذكريات تلك الحقبة من حياتنا محاولا ما استطعت ترتيب الوقائع  
في هدوء ، وكانت هناك حلقة مفقودة هى التي حالت دون ربط  
للحوادث بعضها ببعض مما سبب لى ضيقا شديدا .

وكنت أمل فى ازالة ذلك الضباب الكثيف الذى يغلف ذلك  
القسم من الذكريات قبل أن أسجله فى رسالتى ، ومع ذلك فقد  
مضى يومان وذهبت جهودى أدراج الرياح ، فأعدت قراءة ماسبق  
أن كتبت فى تلك الوريقات القليلة السابقة ، وخاصة تلك التي  
تشير الى الأسابيع القليلة التي قضيناها فى مدينة كان ، وخرجت  
من ذلك كله ناقما على نفسى .

\* \* \*

واليوم وأنا أعود للكتابة يخيل الى أن قبسا من فهم وادراك

يتسلل الى قلبي ، فيلقى حلقات من نور لعلها تساعد في تفسير ما اصابني يوم ذاك على محطة سكة الشمال الحديدية .  
سيكون لي ولد ياتي من بعدى ليحكم على ويزننى بميزان الحق فيقول مالى وما على . !

فانا بنفسى حين كنت طفلا ثم صبيا اعتدت ان انظر الى أبوى بمنظار الناقد الدقيق الحريص على ابراز السيئات والحسنات مسجلا فى ذاكرتى الواعية ادق الملاحظات ، ربما لم يكونا هما يلاحظانها ، فمهما اوتى الانسان من وعى وذكاء فلن يستطيع ان ينظر فى مرآة نفسه فينقدها تماما ، فالقريب من الشئ لايعرف ابعاده كلها ، انما الذى يستطيع ان يرى العيوب بجلاء هو الذى يراها من بعيد وبعد سنوات تمر !  
وانها قصة قديمة تتكرر كل جيل ، الأبناء يرقبون الآباء ، كما كان هؤلاء يراقبون الأجداد !  
قرات ذات مرة عبارة لاحد الكتاب : ان ابناءنا صورة منا ة وأرواحنا تتحدث على سنتهم !

وأظنه يؤمن بقضية تناسخ الأرواح القديمة ويعتقد ان ارواحنا تنتقل فى مدى مائة عام ، من الاب الى الابن الى الحفيد ، تؤثر فيهم الى اعماق نفوسهم ، يظل الحفيد يذكر ما يقوله الاب عن الجد ويراه بعين الخيال يتحرك امام بصره حتى اذا ما صار الحفيد ابا اندثرت ذكرى الجد واختفت بين طيات النسيان واصبح اسطورة قديمة بين الحكايات والاساطير ، وهكذا تمضى الاجيال موجة بعد موجة كأمواج البحر تأخذ الصاعدة من الذاهبة ، وتعطى الصاعدة ما يجيء بعدها الى آخر الزمان .

هل قرات من بين دراستك فى اللىسيه - كما فعلت فى ايامى - تلك القصيدة الرائعة التى خلد بها الشاعر بيرانجيه اسمه ، والتى ما زالت محفورة فى ذاكرتى عن تلك الجدة العجوز التى رأت نابليون حينما كانت بعد طفلة ، وهى تحدث حفيدها عنه - الجيل الثالث ، وكان الحفيد يتخيل انه يرى الامبراطور ممتطيا صهوة جواده ممتشقا سيفه ؟ .



وحيثما يكبر الحفيد الطفل وتموت الجدة الطيبة تختفى تلك الصورة ولا يعود البطل الفارس الا مجرد تابوت يرقد تحت قبة الانفاليد يتحدث عنه التاريخ!

مائة عام وبعد ذلك تمنحى كل ذكرى عن الآباء والأجداد . .  
والمستول عن الامساك بطرف اول خيط يا ولدى هو الابن !  
سيكون لى اذن ابن ، سيتحدث عنى لأولاده بما انطبع فى ذهنه ذاما أو مادحا .

وكانت أمك أيضا من بين نقادى او ربما قضاتى ، ولكنى انا أيضا .. بدورى - كنت وما أزال قاضيتها ، فنحن متساويان فى الأخطاء ، هى تعرف تقط ضعفى ، وانا اعرف تقط ضعفها ، وبجانب ذلك بعد رثت جسمى العارى الضعيف فوق فراش مرضى بالمصحة .  
وانى لاتسأل الآن دون أن أصل الى اجابة حاسمة : هل كنت اتزوجها أو تتزوجنى لو ان ظروفنا وقت ذاك قد تغيرت او لم يوجد أصلا ؟

\* \* \*

كانت ولادتك فى تلك الغرفة التى خصصناها لنومنا فى فندق ميدان أوغسطين الأكبر ، فى الثانية صباحا ، ولقد لاقت الخادمة عناء كبيرا فى العثور على احدى القابلات فى تلك الساعة حتى تخرجك الى انور . كلا بل يجدر بى ان أقول الى الظلام ! كانت باريس كله فى حالة اظلام تام لسبب الحرب التى استعر أوارها ، ولم تكن نحارب وفتند فى « هندكشوت » بل انسحبنا بعد انهيار ذلك الخط المبيع « ماجينو » وبدأ الناس فى باريس وقد تملكهم الرعب يهاجرون منها زرافات ووحدا .

ولم اكن - بوصفى جنديا - بطلا وفى الوقت نفسه لم اكن جباناً ، فقد أدت واجبى قدر جهدى وبذلت غاية طاقتى فى القتال . ومع ذلك فقد اضطررت ذات يوم ان أترك مكانى فى مقدمة رجالى واتبعهم - وكان أغلبهم قد خلف سلاحه وراء ظهره - نجرى هارين ما استطاعت أقدامنا ان تحملنا الى جنوب نهر السين ثم من بعده الى اللوار .

أختلط المدنيون بالجنود فى فوضى ضاربة اطنابها : جموع

حاشدة لا تعرف فيها الحابل من النابل ، تبحث في يأس وفزع  
عن ملاذ لها من عشرات الآلاف من طائرات الأعداء التي كانت تصب  
علينا حممها ، وتحصدنا على قرب شديد بمدافعها الرشاشة فوق  
وعوسنا وكأنها ترش أحد الحقول بقاتل للحشرات ! .

وكنت وقت ذاك اتوقع مولدك ، ومع ذلك فلم أسمع به إلا بعد  
شهرين كاملين حينما استطعت أن أحصل على ثياب مدنية في  
( انجوليم ) وتسلمت عائدا بمفردي متنكرا الى باريس .

لم أقتل في الجبهة ، ولم أجرح أو أقع في الأسر ، كما حدث  
لأغلب جنودنا ، بل عدت سليما معافى الى مكتبى فى شارع لافيت  
ومضيت فى عملى المعتاد مرة أخرى .

وكانت ثمة أماكن عدة شاغرة وخاصة بين وظائف مجلس الإدارة  
التي كان يشغل معظمها اليهود الذين فروا كالجرذان المرعوبين  
وغادروا باريس قبل أن يدخلها هتلر وجيوشه ، ولجئوا الى المنطقة  
الحرّة ، وذهب بعضهم الى انجلترا أو أمريكا !

ووجدت نفسى كفرس الشطرنج انطلق مدفوعا للأمام . ووثبت  
درجتين مرة واحدة ، وانتقلنا الى شقة مفروشة بأحسن الأثاث  
وأفخم الرياش بحديقة ميدان مونسترو استوليت عليها بما يشبه  
الملكية ، وكانت تخص أحد المديرين واسمه ليفى ، هرب من باريس  
وذهب الى البرتغال فى انتظار دوره ليستقل باخرة الى نيويورك  
مفضلا أن يحتل أحدنا شقته قبل أن يستولى عليها الألمان .

وظللنا نقيم بها حتى انتهت الحرب ، وبعد أن انتهت بعام كامل  
لأن ليفى لم يعد إلا فى عام ١٩٤٦ ، وفى الحق كان ذلك أول مكان  
شبيت فيه وأمضيت فيه طفولتك .  
ولم تكن طفولة سهلة ميسرة بالنسبة لك يا ولدى ، وكان ذلك  
أشد ما يزعجنى . .

وما فائدة هذه الأوراق ان لم أكن معك صريحا ؟

شهدنا تلك الأيام حرمانا كاملا من كثير من الضروريات ،  
وانطلقت أمك تكذ وتشقى وتنقب عن كميات اضافية من الطعام ،  
لكننا نخشى عليك ان تموت من سوء التغذية ، أو تتجمد من شدة

البرد والصقيع ، فقد عذمت وسائل التدفئة ؟ وصرنا نبيت في الظلام  
اغلب الليالى ، لا يطمئن مخلوق على نفسه من الاعتقال او التعذيب  
او الموت رميا بالرصاص ! ينتزعون الآباء من بين أسرهم وذوي  
قربانهم ثم يسوقون الأطفال والنساء الى غرف الغاز حيث يعدمون  
او لا يعرف مصيرهم احد !

وكنت ارقبك وفي قلبى خوف عليك . . تنمو وتحبو في ذلك  
الجو الغريب المحيط بك والذي لا يخصنا ، فتلك الصور على  
الجدران كلها لأسرة ليفى التى لا نعلم عنها شيئاً : أجداد وعمات  
وخالات وأبناء لا يمتون لنا بصلة او علاقة كنت أحمل لهم في  
اعماقى كرها شديدا .

وكان الطابق الذى نشغله من الفخامة والروعة بحيث لم يكن  
فى وسعى أن أدفع ايجاره لو كانت الظروف طبيعية . ثلاث غرف  
فسحة مؤثثة تأثيثا فاخرا من القطع الثقيلة الثمينة والطنافس  
العجمية تغطى كل شبر من الأرض الخشبية اللامعة وغرفة الطعام  
التي تتسع لعشرين شخصا .

— حذار يا جون بول ! لا تلوث هذا المقعد انه لا يخصنا !

وفى الحق ، ثم يكن فى ذلك المسكن ما يخصنا سوى حاجاتك  
آنت يا بنى ، فقد كان من المتفق عليه ان نسلم كل شىء بالحالة  
التي تسلمناه عليها ، فلم نبدل شيئاً او نحركه من مكانه حتى الأوراق  
التي كانت بأدراج المكتب لم المسها ! .

وكانت لدينا وصيفة — فرناند — هل تذكرها ؟ لقد تركتنا بعد  
فترة من الوقت لتتزوج كهريا . . كانت تمضى اغلب اوقات الاصيل  
معك جالسة على اريكة فى احدى الحدائق ترعاك بعينيهما ، فقد  
اكانت أمك لكثرة مشاغلها فى تلك الأيام لا تكاد تجد لحظة واحدة  
من الفراغ حتى تهتم بك .

هل تدهش لو اكدت لك ان هذه الأيام فى حياة أمك كانت  
بالنسبة لها أياما ذهبية وأجمل فترات حياتها الزوجية ؟  
وما كنت اكاد اشعر بالحرب فى غمار مشاغلي بشارع لايفيت،  
اذ تضاعفت مسؤولياتنا لتلك الظروف الطارئة وقلة الموظفين العاملين  
الذين نقص عددهم الى الثلث !

وسوف تعجب اذا أدركت ان عمل الخبير الاكوتارى فى شركة التأمين قد ازداد أهمية وتعقيدا بسبب الحرب ، فقد كان علينا ان نعيد تنظيم كل أرقامنا وتقديراتنا لتساير حوادث القتل التى كانت تقترن بجنايات السرقة كرها والهلاك جوعا أو بردا أو خوفا وقلقا بالسكتة القلبية أو تزييف المنخ وغيرها من أسباب الموت المفاجيء بخلاف حوادث السلب والنهب والاتلاف والحرائق التى كانت تشب دواما فى كل مكان دون ان نصل لمعرفة فاعل لها أو سبب معقول بالاضافة الى مئات الكوارث الأخرى التى لم يرد لها ذكر فى بوالص التأمين القديمة لما قبل الحرب ، وكل ذلك كنت عنه مسئولاً ، وأى خطأ فى التقدير يسبب للشركة خسارة بلايين الفرنكات .

وكانت الحرب - بالنسبة لوالدتك - تعنى شيئاً آخر أكثر أهمية ، وما يشغل بال كل أم مسئولة عن بيتها عادة ، هو البحث عن طعام يمسك رفق الأسرة ويرد عنها غائلة الجوع ، وفى سبيل ذلك كانت تتحمل مشقات كبيرة فى الانتقال الى الريف والقرى المجاورة ليباريس حيث تلقى هوأنا شديدا فى المساومة والشراء .

واكتشفت فجأة انها كانت تمارس ولبضعة أسابيع دون علمى نشاطا آخر يختلف فى نوعه عن مجال البحث عن الطعام لنا . فعلى اثر عودتى من عملى ذات مساء انحنيت عليك أطبع قبلة على جبينك الصغير ، فلاحظتها تحدجنى بنظرة حادة ، كما لو كانت تريد ان تنقل لى رسالة سرية وفى غفلة منك رفعت سبابتها الى شفيتها محذرة حتى لا تشعر أنت بما يدور!

وبعد ذلك بلحظات انتحت بى ركناً بعيداً فى غرفة الجلوس التى لم تكن نستعملها لافتقارها الى وسائل التدفئة ثم همست لى قائلة :

- ابتعد عن حجرة النوم الخضراء .

وكانت غرفة مهجورة خالية ، لم نستعملها قط كما كان بى بحاجة اذن لدخولها فحملت فيها مشدوها ، حتى أسمع منها نفسياً .



– بداخلها رجل وأرجو ألا يعرف جان بول عن ذلك شيئاً .  
وشعرت بدوار شديد فتماسكت وأنا أقول :  
– من هو ؟

– انسان يبحث عن مكان أمين يختبئ فيه لبضعة أيام .

واعتدنا بعد ذلك أن « نستضيف » عدداً من الناس بعضهم  
يمكث ليلة واحدة أو أسبوعاً بيننا ، ولم أشاهدهم قط إلا حينما  
وقعت عيناي على أحدهم مصادفة ، فسارع باغلاق باب غرفته في  
وجهي . . .

– يحسن بك أن تجهل كل شيء عنهم حتى إذا ما ستجوبوك  
انكرت صادقاً ، وضميرك مرتاح !  
– وفرناند ؟

– لن تقول شيئاً كل ما يهمها هو الحصول على المال . وأنا  
أدفعه لها بسخاء .

وكانت أمك تقوم برحلات كثيرة لم تحطني بها علماً ، واني  
لأذكر أنك حين كنت في عامك الثالث ، سألتني ذات مرة : لماذا  
تكثر مامي من الغياب في هذه الأيام ؟

وكانت نحى عني تحركاتها أحياناً – لا لفقد ثقته بي – بل أنا  
أعلم يقيناً أنها كانت تحرص على أن تتجنب توريطي في أسرار قد  
تعرضني لو اندمجت فيها للرمي بالرصاص ، كانت تهدف الى  
التقليل من الخسائر في الأسرة ما استطاعت ، فلقد بدأ عهد  
الارهاب . ونشط الجستابو في التعذيب والاستجواب ، فأصبح  
الانسان مهدداً في حياته وماله لا يأمن أن يظل من نافذة أو يخرج  
من الباب !

ومع ذلك ، كانت تلك المخاطر والأحوال أحب الأشياء الى قلب  
أمك ، فقد وجدت الميدان الذي هويه فؤادها .

ولذلك السبب قلت لك ان هذه الفترة ربما كانت من أسعد  
أيام عمرها في حياتها الزوجية .

فكل منا مهما كان مركزه في المجتمع وضيعاً كان أم رفيعاً ،  
يتمنى أن تكون له أهمية في بعض النواحي ، حتى يشعر بقيمته بين

الناس ، ويحقق بعض أحلامه وآماله !. الا ترى أن السبب الأكبر فيما يمر فيه العالم من اضطراب وقلق نفساني هو افتقارنا جميعا الى تحقيق ما يدعم خيالاتنا ويحقق أحلامنا ويعيد الثقة الى نفوسنا ؟ ما أحوجنا جميعا الى التجرد من عالمنا المادى القائم على المصالح الشخصية والبحث عن المثل العليا فى عالم الروح !

قد تسأم من هذا الحديث الذى يبدو كأنه محاضرة فلسفية جامدة ثقيلة عن نفسك ، ولكنى أذكر ذلك كى تفهم الكثير عن والدتك التى خاطرت بنفسها وجازفت بالتشويه والتعذيب والموت من أجل تحرير فرنسا من أعدائها فى أشد الظروف قسوة ورعبا .  
ومنحوها أرفع الأوسمة عام ١٩٤٥ ، تقبلته فى هدوء وبلا ضجة ، واستحقته عن جدارة وإيمان .

ولكنى فقدت زوجة كما فقدت أنت أما فى غمرة تلك الأحداث . معذرة يا ولدى اذ اذكر لك ذلك ، ولكنها الحقيقة المؤلمة التى لا ريب فيها ، فلقد خرجنا من الحرب ونحن على طرفى نقيض ، ولم تعد الحياة المنزلية وواجبات الأمومة تروق لها بعد ذلك النشاط الكبير والحماس العظيم ويخيل الى أنها كرهت أن تحبس نفسها بين جدران أربعة .

لقد وقع كل منا فى الخطأ نفسه حينما تصورنا أن ذلك النوع من الصداقة يصلح أن يكون أساسا كافيا للحياة فى عش واحد .  
وقعنا فى ذلك الخطأ حين كنا فى مدينة « كان » فى جو مثير من المرح والأحلام .

ولست الومها أو أحملها تبعة ما حدث . كذلك لن تستطيع هى ان تفعل ذلك أيضا .

ثم أين هو ذلك الصديق الذى يدوم لك وللأبد ؟

فالانسان منا يبدأ حياته بأصدقاء الطفولة فى المدرسة الابتدائية ولا يلبث حتى يتخذ آخرين جددا فى المدرسة الثانوية سرعان ما يحل محلهم غيرهم فى الجامعة . وهكذا يقفز فى حياته عشرات وعشرات فى اثناء حياته العملية الأولى وفى متوسط العمر ، ثم حينما يتقدم به السن نحو الشيخوخة .

تركب القطار من اول الخط ، يصعد البعض ويهبط آخرون ،  
ينطلقون فى شتى الاتجاهات . . بعد ان يلوحوا لك بأيديهم مودعين  
وسرعان ما يبتلعهم الظلام !

ولا اعرف احدا - من بين من عرفت او سمعت - احتفظ بنفس  
الاصدقاء لمدة عشرين او ثلاثين عاما ، ولا اذكر اولئك الذين يتلاقون  
مصادفة كل عامين او ثلاثة فيتصافحون فى حرارة ويتعانقون وهم  
يتبادلون ضرب الايدي على الاذرع والاكتاف يستعيدون ذكريات  
الماضى البعيد السعيد .

ولو ان رجلا مثلى وله مثل مواهبى وصفاتى منذ عشرة اعوام  
لكان من المحتم ان يتغير ذوقه ومزاجه ويتطور فى عاداته وطباعه  
خلال تلك الفترة من الزمان ، وانا نفسى قد تطورت ايضا فى هذه  
المدة وغدوت شخصا آخر يختلف تماما عن الاول ، انطاق كل منهما  
فى طريق آخر مخالف ولا شبه بينهما اطلاقا .

وليس اطيب للقلب واجمل للنفس من ان يتاح للانسان ان  
يتقابل مع صديقه ، فى الوقت الذى يريد ، ومتى يجب . . اما ان  
تلقاه امامك وقتما وحيثما لا تتوقع ان يفاجئك فى لحظات ضعفك  
وجبنك فذلك مالا يحبه مخلوق ، فهل يمكن ان ينطبق ذلك على  
الصديق من الجنس الآخر ؟ طالما فكرت فى ذلك ، وما زلت افعل  
حتى هذه اللحظة بالرغم من انى - منذ مأساة عام ١٩٢٨ -  
لم اضع ذلك تحت التجربة والاختبار ، ومع ذلك فانا او من بان الحب  
عامل هام ، لا يمكن الاستغناء عنه فى تشييد واقامة ذلك الصرح  
الشامخ ، فهو يعنى ان الزوجة او الزوج يدوب ويفنى فى النصف  
الآخر ، ويصبحان فردا واحدا وجسما واحدا اذا اشتكى منه عضو  
تداعت له سائر الاعضاء .

واجد نفسى مضطرا لان اضيف هنا شيئا الى ما ذكرته عن ابنى  
وامى ، وهو ثقتى المطلقة فى ان ما بينهما كان حبا جارفا حقيقيا الى  
الحد الذى جعل ابنى يمل الحياة بعد مماتها . بيد انه مازال امامنا  
متسع من الوقت حتى احديثك عن ذلك فما زلنا فى جيلنا اتحدث  
عن نفسى وعن والدتك خاصة ولم اكن اعتقد حينما بدأت ، انى

صافيفض في ذلك على غير ما توقعت مما يضطرتني لان استمتعت  
بحتى النهاية .

وانا اجد - في صومعتي - ملاذا في الابتعاد عن لا احب من  
الناس واجد فيها جنة احلامي .

وامك - بدورها - تجد ملاذا في نشاطها الدائب .

وربما ظن اصدقاءونا فيها الطموح ، وانها في الحق كذلك فلم  
يعد لديها طيارون انجليز او اعضاء للمقاومة السرية ، تمد اليهم يد  
العون والمساعدة ، ولم يعد لديها رسائل هامة او قنابل تحملها في  
مسلة الخضراوات ، كذلك لم تكن لها موهبة الكتابة مثل شقيقتي  
تحول اليها طاقتها المشحونة .

وكان اول ما حققته من امانها ، هذه الشقة بشارع ماكماهون  
التي اشترت اثنائها الفاخر بنفسها واشرفت على تنسيق كل قطعة  
في ارجائها مع عمل الديكورات الفاخرة ، ثم استقبال الناس من  
ذوى الحيثية والمناصب الخطيرة ، فهي لم تنس قط تلك الثكنات  
التي ترعرعت فيها وشهدت فيها طفولتها بمدينة نيس ، او اصل  
والديها المتواضع البسيط .

وهي لاتزال في طريقها للصعود نحو القمة ، ولسوف يخيب  
املها فيك ان لم تحذ حذوها في ارتقاء السلم حينما يحين دورك  
انت ايضا .

وارجو ان تضيف الى ماذكرت ذلك الفراء الثمين الذي اشترته  
اخيرا والذي يساوي وحده ثروة طائلة ، والمعطف الانيق الذي  
مسبقه ، واول سيارة خاصة فرحت بها ، وكذلك اول مرة دخلت  
اقيها محلا للمجوهرات في زهو وكبرياء .

وربما تغير وجه التاريخ وصرنا اسعد حالا لو كان زواجنا عن  
حب بدلا من ان نعقد تلك الصفقة التجارية ، او زواج الفلاسفة كما  
سبق واطلقت نفسها عليه ذات يوم ، عندئذ فقط كنت اشعر بان  
لي شريكة العمر ، وكنت تجد فيها الام التي تفهمك .

سامحني ياولدي ، انا مضطر لان اذكرك هذا ، وارجو الا اكون  
قد اسأت اليك .



قبل أن أبدأ كتابتى هذا المساء ، قضيت أعيد قراءة ما كتبت  
أخيرا ، فشعرت بالكثير من الاثم وعدم الارتياح وكأني قد ارتكبت  
زجرا ، وأوشكت أن امزق الأوراق كلها .

كنت أحاول - بلا ريب - أن أسجل انطباعات نفسى بين  
السطور لأزيح عبئا ثقيلا عن قلبى وضميرى ، وأكاد أشعر بأنى اكتب  
لنفسى أكثر مما اكتب لك ، وربما خطر لى - بمجرد أن أنتهى من  
رسالتى - أن ألقى بها فى الموقد طعمة للنيران .

أترانى فاعل ذلك ؟ لسوف نرى .

وان أمك لتبدو - رغم تجاوزها الثامنة والأربعين - أصغر  
من ذلك بكثير « بفضل حيويتها وروحها المرحة وعينيها اللامعتين »  
وهى ما تزال موضع حسد وغيره من جميع الشابات الصغيرات .

فهى ليست كغيرها من النساء ، ممن يفقدن رشاقتهن بعد  
الزواج ، بل إن جسمها يزداد حسنا وجمالا بمضى الأيام ، ربما كان  
ذلك لأنها تنتقى أروع الثياب وأكثرها تناسقا ، أو ربما لأن الستين  
قد زادت خبرة ومرانا باختلاطها بالباريسيات اللاتى رأين الكثير  
وسمعن الكثير وتعلمن الكثير أيضا . .

وهى لا تختلف عن والدة صديقك - زابو - التى قد تجاوزت  
الأربعين بعدة أعوام ، ومع ذلك فما زالت معبودة الملايين من عشاق  
فنها الذين يرون فيها المثل الأعلى للرشاقة والجمال .

\* \* \*

أصبح عيد الميلاد على الأبواب والمدينة قائمة على قدم وساق  
وكانها قد أصيبت بالحمى ، فأنوار النيون الملونة تضىء وجهات  
المتاجر الكبرى تظهر وتختفى ثم تعود فتخطف العيون فى حلقات  
ورسوم رائعة تحمل الاعلانات التى تدعو الجماهير للاقبال على  
الشراء ، وبدأت المسارح ودور السينما تقدم أقوى المسرحيات  
وأروع القصص ، والناس من جميع الطبقات يكادون يطرون من  
شدة اللهفة والسعادة ، وازدانت نوافذ الدور بثوب قشيب من  
الضيء الباهر وسكانها يتأهبون للاحتفال باليلة الخالدة .

وكان كل زملائى بالمكتب يتحدثون عن الهدايا وأين يقضون

السهرة المرتقبة حتى الصباح ؟ وكنت قد انتهيت بدورى من اعداد الاحصائيات عما نتوقع حدوثه من حوادث القتل والمصادمات والحرائق والانتحار .

وسوف نحتفى بعيد الميلاد مثل باقى الناس ، وسنقيم شجرة الميلاد ، شجرة متواضعة مما يناسب الكبار . فقد كبرت ولم تعد طفلا تستهويه المصابيح الكهربائية الملونة ولا القطر الكهربائية . وكنت قد طلبت منى قاربا بخاريا ، وسوف اشتريه لك ، وقد مروت فعلا عقب خروجى من عملى هذا الاصيل بالمتجر الخاص ، ودفعت ثمنه مقدما ، وسيكون تحت تصرفك فى الرابع والعشرين من ديسمبر .

وسوف اقدم لوالدتك قرطا من الماس يتفق طرازه مع عقدها الثمين .

وحين كنا فى لاروشيل عام ١٩٢٨ كانت الدنيا بأسرها تحتفل بعيد الميلاد ، ماعدا أسرة لافرنسوا .

أما اليوم - فقد منحونى هديتى ، هدية مؤسسة التأمين التى أعمل بها ، ولم تكن فى هذه المرة مظروفا يحتوى على مبلغ من المال أو صندوقا من السجائر غالى الثمن ، بل اضطرونى الى تحرير اقران كاذب مزور حتى أحصل على تلك الهدية مما أفسد سرورى بها .

وهل ترانى كنت أشعر بالسعادة والسرور لحصولى عليها لولا تلك المأساة أو السحابة التى تظلل الماضى البعيد ؟ .

ربما .

كانت الساعة الثالثة حينما اخبرونى بأن المدير العام يريد أن يرانى فى مكتبه ، وهو رجل مهم جدا ، نخشاه جميعا فبين يديه مصاير الآلاف من الموظفين والمفتشين ، ويحتفظ دائما بأقراص التنترين فى درج مكتبه ، وفى جيوب سترته ومعطفه فهو مهدد بالذبحة الصدرية فى أية لحظة .

وحين يتناول طعامه فى أرقى النوادى والمطاعم ، أو يدعى لبعض الحفلات أو السهرات الرسمية ، لا يقدمون له الا أبسط وأخف

أنواع الأطعمة التي حدها له الأطباء يتناول منها القليل جدا كأنه عصفور!.

وربما كنت أنا الوحيد الذي يعرف لماذا يحتفظ بذلك الشارب الأنيق ذي الطرفين المفتولين والمرفوعين لأعلى والذي يتحول سريعا من الأسمر للأبيض ، ذلك حتى يقصر المسافة بين أنفه وشفته العليا ويخفي بهذه الطريقة رقة وطيبة في ملامحه ، فبدون ذلك الشارب «المهيب» الذي يرتعد لمرآه جميع مرءوسيه . تراه شخصا عاديا مثل عشرات الناس ممن تقابلهم في أي مكان .

— اجلس ياسيد فرانسوا .

وتغطي جدران مكتبه لوحات زيتية تمثل المديرين السابقين يالتوالي على حسب ترتيب وتواريخ وجودهم في مناصبهم ، وحينما يذهب — ذات يوم — سوف يضيفون صورته في المكان المناسب . وكانت أصابع يديه طويلة والجلد الذي يكسو اليدين به يقع هوداء لاتسر الناظرين .

وحدج أزوار سترتي بنظرة ذات معنى . . ثم قال :

— اذا لم أكن مخطئا في ظني فأنت لم تتقلد بعد وسام « اللجيون دوتور » !.

فهزت رأسي .

حسنا . . سوف نعوضك هذا التقصير فأنت جدير به ، وسيكون اسمك — اذا ما صدق حدسي — ضمن قائمة من سينعم عليهم في العام الجديد ، تلك هي هديتي اليك بمناسبة عيد الميلاد ، فقد كنت أتناول منذ برهة وجيزة الغذاء مع وزير المالية الذي تبين أن لديه لحسن الحظ بعض الأوسمة والقلادات الباقية . وسألني : هل أعرف من يستحق شيئا ؟ . واذا كنا في الجامعة معا وثمة صلة قرى بعيدة بين زوجتينا ، فلن تجد نفسك مضطرا الى اتخاذ الشكليات المعروفة المعتادة وما عليك الا أن تملأ هذا النموذج . وأشار بسبابته الى ورقة مطبوعة بها أمكنة خالية للأجوبة كانت هلى طرف مكتبه .

— أعدها لي فورا وتقبل تهنئتي الحارة !.

وهو — بنفسه — يحمل نيشان الاستحقاق من طبقة فارس فهل يراه يستحقه باخلاص ؟ وهل هو يعتقد حقا انى استحق ذلك

الوسام عن جدارة دون باقى المواطنين الذين ادوا للوطن اجلا  
الخدمات واكبر التضحيات ؟ وهل يعتقد ذلك الوزير الاحمق الذى  
يرغب فى بعثة بعض الاوسمة التى بقيت فى مكتبه - ذلك  
ايضا ؟ .

انى لاتخيل ما حدث بالضبط فى تلك المأدبة : الوزير على رأس  
المائدة ، والسيد المدير يجلس عن يمينه ، ويبدو أن الاول قد  
أفرط قليلا فى أنواع الشراب حتى مال على المدير ضاحكا وهو  
يقول :

- وعلى فكرة ياهنرى ، لا تدهش اذا أخبرتك انه مازالت لدينا  
بعض النياشين لم توزع بعد ، فقد تبين اننا قترنا قليلا فيما يبدو  
ونحن نكتب القوائم والكشوف . . أتريد شيئا منها ؟ .

ويطرق المدير برأسه قليلا يستعيد فى ذاكرته أسماء مرءوسيه  
ولسبب ما يتذكرنى ، فيرفع رأسه وهو يقول :

- أجل ، خبرنا الاكثوارى ، سوف يسعده كثيرا لو حصل على  
« اللجيون دونور » .

ترى ؟ لو كان قد ذكر له اسمى . . افما كان الوزير يقطب حاجبيه  
متسائلا :

- هل هو أحد اقارب فيليب لافرنسوا ؟ .

أفقد كانا يبلغان عمرا اتاح لهما أن يسعيا بذلك الحادث القديم  
ولا اعنى انه يقف عقبه فى سبيل تكريمى ، فلم تكن لى - بذلك  
الموضوع - اية علاقة من الوجهة الرسمية .

ومع ذلك فهانذا أجد نفسى مرغما على التوقيع على اقرار مزور  
كاذب ! .

فمنذ أن أبى أحد الصحفيين قبول وسام « اللجيون دونور »  
الذى منحته اياه الدولة ، ورفضه باباء وشعم ، واعاده بطريقة غير  
مهذبة دلت على شدة احتقاره له ، مما أخرج الحكومة ووضعها فى  
مركز دقيق ، منذ ذلك الوقت - وقد مضى عليه عشرون عاما -  
والدولة تشتترط فيمن ترشحهم احدى الجهات للحصول عليه  
أن يقدم طلبا موقعا عليه منه ، يؤكد فيه مبررات الاستحقاق .



وانا لم يقتصر دورى على اتى ملات نموذجا ووقعته بامضياتى  
فحسب للحصول على وسام لم يخطر قط ببالى او افكر فيه ، بل  
استكتبونى اقرارا بعدم سابقة مثولى امام اية محكمة جنائية .

وليس فى ذلك الامر ما يعرضنى للعقاب او يوقعنى تحت طائلة  
القانون ، ومع ذلك ، كان ذلك فى نظرى انا شخصا كذبا وزورا  
وبهتاننا ، فقد كنت استحق -وعن جدارة ايضا - ان احاكم ذات  
يوم امام محكمة الجنائيات !.

ربما كان ايمانى ضعيفا ، ومع ذلك فلا املك الا الشعور بالقبطة  
تغمر حنايا قلبى كلما سمعت أجراس الكنائس يتردد صداها . .  
والسعادة تهز كياتى حينما ارقب مواكب الكرنفال والناس يرتدون  
الثياب التقليدية ويرقصون ويمرحون ، كذلك اشمخ بأنفى زهوا  
وكبرياء . وانفخ صدرى عزة وقوة حين تقمع عيناي على جنود  
الجمهورية فى الاستعراض الكبير تهتز لهم الارض وهم يدقونها  
بأحذيتهم الثقيلة على اصوات الطبول وانغام الموسيقى ! .

وطالما ارهعت اذنى - صبيحة كل احد - الى نواقيس كنيسة  
القديس فرديناند فى الجهة المقابلة من الميدان ، واشعر بما يشبه  
الفيرة وأنا أتطلع من النافذة فألمح جيراننا وقد تأبطوا أذرع نسائهم  
وامسكوا بأيدي أطفالهم ، الجميع فى أبهى زينتهم وهم داخسون  
او خارجون من الكنيسة يلوح البشر وعلامات الرضا على وجوههم .  
فلست اذن جامد الشعور بليد العاطفة ، بل ان بين صدرى  
تضميرا لا يكف عن تذكيرى بذلتى ، ويؤرق نومى ، ومع ذلك فلا  
أستطيع ان أرفض ذلك الوسام من أجل أمك حتى ترفع رأسها  
ومن أجلك أنت أيضا يا ولدى . .

ولعلك لم تسمع بعد اننا سنقيم بعد ايام قليلة وفى عيد رأس  
السنة حفل استقبال كبيرا ، سوف يحضره نحو اثنى عشر رجلا  
من كبار القوم والشخصيات الالامعة لمناسبة منحى ذلك الوسام ،  
وسترى ديزيريه كبير الخدم بمطعم بوتيل وشابو مرة اخرى ، وهو  
يدفع أمامه العربة الفضية الكبرى التى تحمل أطباق المشهيات  
والأكواب البلورية ولال الحلوى والبتي فور ! .

هل تذكر انك - حين كنت صغيرا - وتدعوه بصديقك العظيم؟  
لانه كان يختلس الخطا نحو غرفتك من وقت لآخر حاملا اليك بعض  
ألوان الحلوى وصنوف الفطائر؟ .

كان ذلك فى الماضى اما الآن فسوف تقف على قدميك معنا  
وقوف الند للند طويلا رشيقا ، بيد انى اخشى أن يملكك الخجل  
والاضطراب ، فهذه هى المرة الاولى التى نسمح لك فيها بشهود  
حفل استقبال ، وربما لم تعرف مكانك جيدا بين هؤلاء القوم ، وانت  
تدير بصرك فيهم وفى أنا ايضا ، وفى نفسك انطباعات قد تبدو فى  
هينيك . ولن يستطيع تفسيرها أحد .

اتراك ستصغنى بالحماقة والنزق حينما ترانى اعانق المدير العام  
باعتباره عرابى وكفىلى ، فقد جرت العادة أن يكون لكل من يحتفل  
به من حاملى اللجيون دونور لأول مرة عراب مثل اطفال المسيحيين  
حينما يعمدون فى الكنيسة ، وهل ستسخر منى حينما تسمعنى  
ألقى خطاب الشكر بقدر ماتعيه ذاكرتى ، وانت تعلم انى لا اكره  
شيئا فى الدنيا مثل الخطابة؟ .

وقد حصل زوج عمته ، فاشيه على اللجيون دونور أيضا ولم  
يأته عفوا أو صدقة كما حدث لى - وذلك حق - بل كافح طويلا  
وبرز اسمه فى الأوساط الأدبية قبل أن يستحقه ، بل انه لشديد  
ثقتة فى نفسه ، كان يعلم انه سيناله بكل تأكيد قبل ذلك بأربعة أو  
خمسة أعوام على الأقل ، فهو من ذلك الطراز من الناس الذى يقدر  
سلفا كل خطوة يخطوها .

وهو قد بدأ أيضا من اول الدرج : كان أبوه شرطيا برتبة نقر  
وامه حائكة ثياب ، ويقطنان ضاحية فتيلى بالقرب من لاروشيل ،  
وهى مجموعة من البيوت المتواضعة ذات الطابق الواحد يقطنها  
كتبة المصانع والمعلمون وعمال السكة الحديد وعجائز النساء ممن  
يتكسبن من اعطاء دروس البيانو والموسيقى ، واذكر انى زرتها فى  
صباى ورايت الرجال يعملون فى حدائق منازلهم الخلفية . ونساؤهم  
يشترن من فوق الحواجز والأسوار .

لاتحسبنى احتقر الطبقات الدنيا ، او احط من قدرهم ، على

العكس، اننى لا احترم فيهم طموحهم وكفاحهم واحسدتهم على نجاحهم  
بيد انى استطيع ان اميز اكثرهم مهما ارتفعت مراكزهم فى الحياة  
بما المحه فى نظراتهم من عدااء سافر وكراهية عميقة لى هم دونهم؟  
ذلك لان ما يدفعهم ويحثهم على التقدم والتفوق لى مجرد الرغبة  
فى المناصب ، بقدر حرصهم الشديد ولهفتهم القوية فى التخلص  
من شىء يشدهم ويجذبهم الى القاع ، فما يكاد الواحد يجد الفرصة  
اقد سنحت له ليطفو فوق السطح حتى ينفذ ثيابه اشمنزازا مما  
علق به من ادران الماضى ، ولا يتطلع الى من خلفهم وراء ظهره الا  
شزرا ، بل ان عقدة النقص التى ترسبت فى اللاشعور من عقلة  
تجعله يقسو فى المعاملة على من يسوقه سوء الحظ فيعمل تحت  
امرته ، وكأنه ينتقم مما شاهده ولقيه فى طفولته .

وكثيرا ما ساءلت نفسى هل كانت امك اسعد حالا مما هى الآن  
لو تزوجت رجلا مثل فاشيه ؟ اما كان كل منهما يعضد صاحبه  
وتتضافر قواهما فى شق طريقهما نحو النجاح ؟ .

ولا استطيع ان اخدع نفسى او اضعها فى غير موضعها ، فانى  
اعلم تماما ان طراز امك من النساء لا يتلاءم معى ، وكان يجدر بى  
ان ابحث عن امرأة بسيطة محدودة المواهب تلزم بيتها قانعة بادارة  
شئونها المنزلية ، وتجيد طهى اصناف الطعام ورعاية الاطفال ، امرأة  
مثل السيدة ترمبلى ، او ترانى مخطئا اتشبت بالخيالات والاهام؟  
وهل هى سعيدة بزوجها حقا ؟ .

وبفرض ان والدتك كانت قد تزوجت فاشيه اما كانت تستقل  
فى اشباع طموحها نحو الشهرة والمجد ، فى ميدان يختلف تماما  
عن ذلك الذى لمع نجم زوجها فيه ، ولا تلبث عاجلا او آجلا ان  
تنشق عليه ، وتضرب بذلك الاحمق عرض الحائط؟ .

هذا يذكرنى بما حدث هذا المساء . . فلقد سمعت صوته وانا  
اعرف صوته جيدا- يتحدث فى همس مع والدتك امام الباب الخارجى  
ويقول لها : ان يخرج آلين معك ؟ .  
- انت تعرف آلين اكثر منى لو استطعت ان تحرك جبلا لكان  
ذلك ايسر من ان يجعله يخرج من البيت بعد العشاء ! .

وليس غيرنا في الشقة الآن أنا وأنت ، ولا ينبعث أى ضوء الا من  
غرفتك ومكتبي وباقي الغرف تسبح في ظلام دامس ، انت تجلس  
أمام قمطرك تقرأ وأنا أجلس أمام مكتبي أحاول الكتابة ، وهأنذا  
أسمعك في هذه اللحظة وانت تنطلق نحو الثلاجة الكهربية وتفتحها  
لتعد لنفسك كوبا من الليمونادة وبتقدير الزمن الذى قضيته في  
المطبخ ، عرفت أنك قد وقعت على بعض الصحف التى سال لها  
لعابك شريحة من اللحم البارد او ربما قطعة من « الجاتوه » !.

وتوقعت - وأنا أمسك انفاسى - ان تجيء الى غرفتى فنتبادل  
بعض الحديث ونسرى عن نفسينا ، فلا شك أنك قد رأيت الضوء  
ينبعث من تحت عقب بابى فى اثناء مرورك به ، ولكنك - اكبر الظن  
كنت متأثرا بما اعتادت أمك أن تنبهك اليه دائما من عدم اقتحام  
خلوتى حيث أكون مشغولا فى عملى - فخشيت ان تفضبنى وتقطع  
على تفكيرى !.

وانى لأعجب مما انتابنى هذا المساء ، فأنا اشعر ببعض الاضطراب  
وانا اكتب كل ذلك الهراء محاولا عبثا أن أبطىء ما استطعت قبل  
ان اصل لتلك المرحلة الحاسمة من قصتى ، والتى اراها تقترب منى  
برغم أنفى بخطوات حثيثة ، انها يا ولدى أهم ما فى رسالتى اليك ،  
بل هى السبب المباشر فى كتابتها لك .

ولكنى - وقبل ذلك - أرى نفسى مضطرا الى تذكرك بحادثة  
صغيرة ، أرجو ألا تترك فى نفسك انطبعا بأنى أحاول اثارتك ضد  
والدتك ، حدث ذلك وانت فى فرقتك الخامسة ، وحتى ذلك  
الحين ، وانت الأول دائما فى فرقتك خلال مراحل تعليمك ، اللهم  
إلا نادرا حينما يشتد التنافس ويخونك الحظ فتحتل المركز الثانى  
فى الترتيب ، ثم يشتعل حماسك فتعود لتحتل المركز الأول !.

وكنا نحرض فى نهاية كل عام على ان نحتفل بتفوقك وتقدم  
لك هدية ثمينة على سبيل التقدير والتشجيع !.

ولست أدري كيف شعرت فجأة بأنك على غير عادتك ولست على  
مايرام ذلك العام ؟ ربما حاستى السادسة هى التى نبهتنى لذلك ،  
او عن غريزة مكتسبة مما جربته فى صباى ، ومن ثم فقد أدركت



أنت تعاني قلقاً نفسياً ، أكبر ظني أنه يعود لحاجتك الشديدة لشيء من الرياضة والراحة والاسترخاء الذهني ، فقد لاحظت أنك تركز جل فكري واهتمامك في الاستذكار والتحصيل دون أن تقدر لبدنك حقاً .

وكنت قد تعرفت في اثناء اصطيفنا - في العام السابق - بأراشون ببعض الأولاد وكانوا يمتلكون زورقاً ، فطلبت مني أن تكون هديتي لك في عيد الميلاد زورقاً مثله ، ولكن أمك سارعت بلا حق تعارضك في خشونة ظاهرة وتقول :

- ما أسخف رأيك ! اتطلب هدية لعيد الميلاد لن تعيد منها إلا في الصيف القادم وبعد ستة شهور كاملة ؟ ثم أين نستطيع أن نحفظ به في باريس ؟ أنضع زورقاً في شقتنا ؟ فكر في هدية أخرى تناسب عيد الميلاد أما الزورق فعليك أن تشمر عن ساعدك وتجد وتكد في الاستذكار ، وسوف نشتره لك في الصيف القادم ليكون هدية تفوقك ونجاحك !

وفي رأيها أنك حتى تستحق الجائزة ينبغي ألا تفوز بأقل من المركز الثاني ، ولا شك أنها معذورة في هذا ، فأنت الذي عودتها بنفسك ذلك .

وكنت - قبل امتحانك بشهر كامل - قد ذهبت لاتفرج على الزوارق في ميدان الجيش الكبير ، وطلبت منك مرافقتي حتى أتيقن الطراز الذي تحبه وترغب فيه .  
- هل هذا ما تريد ؟

فقد أومأت الي زورق متوسط الحجم مصنوع من الاليمونيوم المذهب ، ولاحظت - لشدة دهشتي - أنك كنت فاقد الحماس بشكل واضح ، فقد بدا عليك الوجوم والتفكير والحزن ، كما لو كنت تشير الي تابوت لا الي هدية ثمينة تمنيت الحصول عليها !

وذات مساء ونحن على مائدة العشاء سمعتك تقول وفي صوتك ونة الم واسى :

- من المؤكد أنني لن أكون على رأس فرقتي هذا العام ، لقد نخانتني الحظ في اللغة اللاتينية .

وانفجرت أمك غاضبة متوعدة :

– أما حذرتك مرارا وتبهتك الى أنك لا تبذل أقصى جهدك فى استيعاب الدروس ؟

ومع ذلك كنت قد اشتريت لك ذلك الزورق ، وتركته فى المتجر بعد ان وعدتهم بأنى سأخطرهم تليفونيا بالموعد والمكان اللذين سيتم فيهما التسليم .

وحيثما ذهبنا الى حفل توزيع الشهادات والجوائز الذى تقيمه المدرسة آخر كل عام ، والذى اعتدت ان أشهده برفقة والدتك – مع قلة من الآباء يحضرونه – تبين أنك لم تحرز الترتيب الأول ولا الثانى ، بل أحرزت السادس !

وما زلت اذكر لحظة ان خرج ثلاثتنا من باب مدرسة الليسيه كارنو صامتين وكأن على رءوسنا الطير ، وعندئذ كنت أتلهف على ان أمسك يدك ، وأضغط عليها مواسيا مشجعا لأبعث فى نفسك شيئا من الثقة والطمأنينة ، ولكنك كنت بعيدا عنى بجسمك وقلبك ، وكانت أمك بيننا لم تنبس بحرف واحد حتى وصلنا باب بيتنا فى ميدان ماكماهون ، وعندئذ نظرت اليك بعينين ينبعث منهما الشر :

– لا أظنك تفكر الآن فى الحصول على ذلك الزورق يا جان بول ؟

ولم تنبس ببنت شفة ، بل شمخت بأنفك فى الهواء ومضيت لا تلوى على شيء .

وحين انفردت بوالدتك بدأت أدافع عنك . ولكنها قالت فى حزم :

– تستطيع أن تفعل ما يحلو لك ، فأنت أبوه ، أما الأمر بالنسبة لى فهو مسألة مبدأ ، فذلك الزورق ما هو الا مكافأة كان سينالها نظير القيام بعمل ما ، وهذا ما تم التفاهم عليه بيننا وبين جان بول ، وهو الذى قد أدخل من جانبه بهذا الاتفاق المبرم بيننا ، ولم يفشل فقط فى اللاتينية ، بل حصل على درجات مخجلة فى بعض المواد الأخرى . فاذا ما عودته أن فى وسعه ان ينال شيئا نظير الكسل والاهمال فلن تخلق منه رجلا يحقق النجاح بقوة ساعديه ، او يشعر

بِطعم الكفاة مقابل الكفاح والعرق ، بل سيكون شأنك شأن الدبة  
التي قتلت صاحبها الذي تحبه!

وعندئذ ومرة أخرى فهمت وجهة نظرها ، وربما لم تخطيء في  
ظنّها أو بجانبها الصواب في صدق رأيها ، ومع ذلك فقد انطلقت  
إلى غرفتك ، حيث كنت منكبا فوق مكتبك تتظاهر بقراءة إحدى  
الروايات . . .

قلت لك بصوت خفيض :

— لا تبتئس فسوف تحصل على هديتك ! .

فأجبتني وانت تنظر إلى نظرة تمثلت فيها الرجولة والنضج  
وقد خيل إلى أنك حزين من أجلى :

— لا تفعل ذلك يا ابتاه !

— صه! فسترى زورقك في انتظارك حالما تصل إلى أراشون . . .

— لا ، لم أعد بحاجة إليه .

وفهمت وجهة نظرك أيضا ، أجل . . . فهمتكما معا ، أنت  
ووالدتك .

وظل الزورق خمسة عشر يوما ملقى في حديقة الفيلا التي  
اعتدنا استئجارها كل صيف في أراشون دون أن تلقى عليه نظرة  
واحدة .

كان يؤمك ويحز في نفسك أنك لا تستحقه .

أقول لك ذلك لأن أبى أهدى إلى زورقا أنا الآخر ذات يوم ،  
وبالرغم من أنى لم أكن جدبرا به فقد قبلته بلا تردد ، بل فسدت  
استخدمته في شق طريقى وسط الأمواج العاتية حتى وصلت إلى  
الأمان .

ومن أجل ذلك . . . انطلقت وأنا فيما بين العشرين والثلاثين  
أقتل نفسى في العمل الشاق دون أن أتبع لها أية فرصة للمرات . . .

كان ذلك حتى أعوض ما فاتنى ، وأؤكد لنفسى — قبل أى  
منخلوق آخر — أنه لولا فضل أبى على ما استطعت أن أجلس الآن  
لاسطر لك هذا ، ولربما كان قد تغير وجه التاريخ بالنسبة لأميرة  
لافرنسوا !

## الفصل الخامس

كنت في مثل قامتك، انما اعرض منك قليلا عند الكتفين. لاني -  
حينما كنت في مثل قامتك - اكبرك بثلاثة اعوام ، واليك في ايجازنا  
شديد ما اعرفه عن اسرتي واسرتك .

وكبداية لحديثي وفي نظري من الاهمية بمكان ان  
تعرف اني لم انعم في طفولتي او صباى بالاقامة في منزل خاص  
او شقة نملكها مثل باقى الاطفال ، بل في مساكن حكومية يختلف  
اتساع حجراتها ويتباين اثاثها وفراشها ايضا من البسيط الى الفاخر  
من الرياش كلما تنقل ابي من منصب لآخر ارفع شأننا .

وحين ولدت انا - كان ابي فيليب لافرنسوا - الذى لم  
يتجاوز التاسعة والعشرين ويحمل الدكتوراه فى القانون - قد  
بدا - منذ وقت وجيز - حياته الادارية ، وشغل منصب السكرتير  
العام لمحافظة « جاب » فى مقاطعة الالب العليا ، ثم - انا فى  
الثالثة من عمرى - كان وكيلاً لمحافظة ميلو والافرون ، ثم صار  
بعد ذلك وكيلاً لمحافظة جراسى حيث عرفت المدرسة لأول مرة فى  
حياتى .

وقد تدرجت بعد ذلك بين الليسيه فى مدينة بو ، ثم ليسييه  
اينلون ، واخيرا فى لاروشيل حيث استقر مقامنا بها حوالى سبع  
سنوات متوالية ، ولعل هذه المدينة الاخيرة هى الوحيدة التى اتاح  
لنى طول المدة ، ان اعرفها فى طفولتى ، اما ما عداها واقمنا فيها  
من قبل فلست اذكر عنها الا ملامح خفيفة اشبه بالاطياف لقله  
مقامنا بها .

ما كنت اكاد اهنأ بدار جديدة واعتادها وانظم حاجاتى ولعبى  
فى غرفتى ، وابدا احبها ، وآلف اساتذتى ومعلمى فى المدرسة ،  
واتعرف الى رفاق وابدا معهم صداقات جديدة حتى يصدر امر  
نقلنا الى محافظة اخرى بمسكن حكومى جديد وغرف اخرى ووجوه  
تختلف تماما عما اعتدتها .

وهناك فى لاروشيل تزوجت شقيقتى آرليت ببيير فاشيه الذى  
كان كما اخيرتك سابقا رئيسا للمستخدمين فى مصلحة الاشفال



العمومية ، ولم يجد العروسان الصغيران بيتا ملائما ينتقلان اليه ،  
أو لعلهما قد زعما ذلك رغبة في الاقتصاد والتدبير ، فشاركانا في  
الإقامة في الطابق المخصص لسكناتنا في دار المحافظة .  
وإستطيع أن أزهو أمامك بأبوى .

فذلك القصر القديم الكئيب الذي فتحت عينيك لترى جسدك  
وجدتك يعيشان فيه بضاحية «لوفيسينيه» كذلك مظهرهما البسيط  
وحياتهما الهادئة المتواضعة بعد أن بلغا من الكبر عتيا ، كل ذلك  
ليس كافيا حتى ترسم في نفسك صورة كاملة عنهما .

ولن أغوص بك بعيدا في اعماق الماضي البعيد : في الواقع ليس  
أبعد من أوربان لافرنسوا جد أبى الذى عاش في الفترة ما بين  
« ١٨٢٣ - ١٨٩٩ » ولعل من المثير أن تعرف أنه كان صديقا حميما  
لمشاهير العظماء ممن خلدهم التاريخ ، أمثال فكتور هوجو ومارتين  
وجورج صاند واسكندر دوماس الكبير ، ومازلت احتفظ بكثير من  
الخطابات المتبادلة بينه وبين أولئك وغيرهم من رجال الفنون  
والآداب .

وإذا كنت قد رأيت صورة للدوق دي مورفى فهي صورة طبق  
الأصل لجد أبى .

وتستطيع أن تتخيله وهو فى ثياب الامبراطورية الثانية  
الموشاة . وهو يتردد دائما على البلاط ، حيث كانت الامبراطورة  
يوجينى تميل لصحبته وتسعد بحديثه وفكاهته ومداعباته المرحة،  
وكان ينفق من دخله الخاص - شأن سراة القوم ونبلائهم فى ذلك  
العصر مسرفا الى حد التبذير على حساب هدم رأس ماله ، ومن  
حسن حظ ابنائه أنه كان مفتونا بهواية شراء اللوحات الزيتية التى  
يرسمها أصدقاءه الرسامون ، وحين مات كانت تلك اللوحات أغلى  
ثمنا وأرفع قيمة من الفدادين القليلة التى خلفها وراءه مثقلة  
بالرهون والديون .

ولقد رآه أبى فى أيامه الأخيرة ، وتأثر بما كان يعيش فيه جده  
من ترف وبذخ ، وسمعتة يفخر أمامى بأن جده كان أحد أعضاء  
نادى « الجوكى » الذى كان مجرد الانتساب إليه شرفا عظيما  
وفخرا كبيرا .

وفى نظري ، وأنا من جيلٍ يسبق جيلك ، انى يشق على ان  
اتصور حياة الفراغ التى كان يعيشها امثال هؤلاء الناس عاطلين  
بلا عمل ، لا شاغل لهم سوى الاغتراف من ملاذ الحياة والتمتع  
بمسراتها .

وكان يملك بيتا قرويا صغيرا من طراز القرن الثامن عشر  
يتوسط فناء كبيرا فى شارع دى باك ورثه جدى واقام فيه طول  
حياته . ولقد اخذتك ذات يوم لتراه ، أتذكر ؟ ذلك البناء الأثرى  
الذى يتوسطه محلا لبيع الأنتيكات على اليسار ، ومكتبة قديمة الى  
اليمن . وله باب ضخم مدهون بالأخضر الفامق اذا دلفت منه.مررت  
تحت قنطرة ذات أعمدة بها غرفة البواب ، ثم سرت فوق الممشى الى  
الفناء الكبير المرصوف بالحجر المربع الملون ورأيت شجرة الليمون  
الكبيره التى توسطه .

أما المنزل الذى فى الجانب البعيد والذى يبدو وكأنه عش غرام  
منعزل عن العيون فانى أعتقد أنه قد شيد خصيصا ليضم بين جدران  
الرقيقة الحايبة محبوبة لأحد النبلاء الارستقراطيين أو ربما لأحد  
قادة الجيش من الجنرالات العظام الذين انحدروا من قلب الريف  
وعرف عنهم شدة الفيرة على من يملكون من الفانيات ، وعلى  
الأخص حين نجول بين غرفه المشمسة الواسعة ذات الشرفات  
الكبيرة التى يحمل أحواض الزهور الساحرة ، وتصل الى غرفة  
الجلوس ومنها الى مكتب جدى .

وخشى ، اذا ما وصفت لك جدى ارماند لافرنسوا ، أن تحسبه  
أحد تلك الشخصيات الهزلية التى تبعثك على الضحك . فلا بد أنك  
شاهدت بعض الأعداد القديمة من مجلة « الحياة الباريسية » وما  
اعتادت أن يبرزه بين صفحاتها من حين لآخر من الرسوم الكاريكاتورية  
التي تمثل « أيام زمان » : أولئك رجال مشدودو القوام شعرهم  
طويل ابيض باضع ، وشواربهم كثة مصبوغة ، والمونوكل يلمع فوق  
أعينهم ينظرون من خلاله فى كبرياء واستعلاء ، وقد ارتدوا  
الصداريات ذات الذيل الطويل من الخلف والمفتوح من الأمام ، فوق  
صراويل حريرية ملونة ضيقة عند الركبتين !

تلك هى - باختصار - صورة جدى ، اذا أضفت اليها ان

شعر رأسه لم يكن غزيرا وقد دب صلغ خفيف في المقدمة كان يحاول  
بجاهدا اخفاه بتمشيط شعر الجانبين في المنتصف!

ارستقراطي عجوز كما سمعتهم يطلقون عليه ، ماتت زوجته  
الشابة وتركته في مقتبل العمر ، فمضى يسرى نفسه ويبحث عن  
السلوى على نطاق واسع حتى حينما بلغ السبعين كان ما يزال فيه  
يقية من فتوة ونشاط .

لكنه لم يكن عاطلا مثل ابيه ، فقد عكف على الدرس والتحصيل  
في همة وقوة حتى حصل على أعلى الشهادات في الاقتصاد  
السياسي ثم لمع نجمه وشغل أرقى المناصب في ديوان المحاسبة .

كل ذلك قد يكون ثقيلًا على نفسك ، يبعثك على السأم والملل ؟  
أعرف ذلك جيدا ، ولكني قد أخبرتك سلفًا بأن ذكرى الانسان  
تعيش مائة عام ثم تندثر ، ولم يمض الا اقل من عشرين عاما لا غير  
منذ أن توفي جدي في السنة التي تزوجت فيها - وقد بلغ السابعة  
والسبعين من عمره ، ومن ثم أجد صعوبة في رسم صورة حية له  
أمام عيني .

وما من شك في أنه كان قليل الكلام ، جامد الوجه ، يفخر  
بأنه يستطيع أن يمتلك زمام عواطفه فلا تكشف ملامحه ما قد  
ينطبع في نفسه من انفعالات ومشاعر ، وأذكر ذات يوم حين كنت  
إفيا بين العاشرة والحادية عشرة من سنى حياتي ، أن غلبنى البكاء  
إلى حضرتة ، فما كان منه الا أن وضع المونوكل فوق عينه وحدجني  
بنظرة مقطبًا حاجبيه ، ثم رمق أبي بنظرة لوم وعتاب .

اتراه كان يعاني آلام الوحدة خلال الأعوام العشرين الأخيرة من  
حياته ؟ فقد كان يعيش وحيدا في عشه الصغير الا من طبخة  
هجوز - ليونتين التي خدمته طوال حياتها - ووصيف يدعى  
أميل ابن أحد الزارعين القدماء .

وكان ما ورثه عن أبيه من مال قليل قد ذاب ، كما يذوب الجليد  
تحت الشمس الحارة ، ولم تبق الا تلك اللوحات الزيتية ، ولم يكن  
ثمنها قد ارتفع بعد ، أما البيت الذي يقيم فيه في شارع دي باك  
لقد كان مثقلا بالرهون ، تستفرقه الديون الى آخر مليم من ثمنه .

ومع ذلك ، فقد استطاع أن يحتفظ بكرامته وكبريائه الى آخر لحظات حياته ، ومن بينها السنوات الثلاث الأخيرة التي قضاها فوق مقعد متحرك على عجل .

هل كان يعلم بما حدث في عام ١٩٢٨ ؟ لا أدري ! بيد انى متيقن من ان أبى لم يذكر له شيئا اطلاقا وبرغم ذلك فأكاد أقسم انه حدى شعر ، وحملنى كل التبعات والقى على اللوم ، فقد تغيرت نظرتة نحوى ، واتخذت طابعا من البرود وعدم الاكتراث الشديد .

وكان يحمل هو أيضا - مثل السيد مدير شركة التأمين - وسام الشرف من طبقة فارس ، كما كان يحوز فى الوقت نفسه عددا من القلادات والنياشين التى منحتها اياها كثير من الدول الأخرى ، التى انتدبه اليها لاستشارته فى امور المال والاقتصاد .

والشباب يا ولدى كثيرا ما يخدعون فى امثال هؤلاء ممن يرتدون قناعا فوق وجوههم ، يكرهونهم قبل ان يحاولوا النفاذ الى ما وراء ذلك فيصلوا الى القلب الأبيض المتلىء طيبة وحبا .

اما وقد مضى سبعة عشر عاما على وفاته ، فأنا أشعر بالأسف لانى لم أوجه اليه أسئلة معينة فلا شك فى أنه وقد حنكته التجارب والأيام ، وراى كثيرا من صنوف الناس والحياة لا شك فى أنه كان على ذكاء كبير وتفكير عميق ، وكان فى وسعه ان يقود نفسى الضالة الحائرة الى بر السلامة والأمان ويجيب عن أسئلتى !

وربما كنت مخطئا فى اوهامى فما من والد الا ويتمنى لو استطاع ان يفرغ عصارة قلبه وخلاصة تجاربه فى عقل ولده حتى يحميه ويؤمنه على مستقبله من مفاجآت الزمن وأحداثه ، ولولا ما ورثته ايانا الأجيال الماضية من ينابيع الحكمة والمعرفة التى حمل اجدادنا مشعلها منذ آلاف السنين ، وتناقلتها السواعد الفتية من جيل الى جيل ما قامت على ارضنا مدينة ولا حضارة ، ولظلنا نقيم فى اغوار الكهوف واعماق الجبال !

كان الفارق بين جدى وجدك كبيرا ، انه الفارق بين ذلك العشب الصغير الجميل بشارع دى باك والذى لم يعد لنا منذ امد طويل ، وسوف يهدمونه ليقيموا مكانه دورا حديثة - وبين فيلا ماجالى ما يل انه الفارق بين ذكريات طفولتى وذكريات طفولتك !



كنت أجد جدى جامد القلب بارد العاطفة .

كذلك لا بد انك رايت فى ابي قطعة اثرية مهمة ، نسج عليها عنكبوت النسيان خيوطه فى ظلال تلك الحياة المملة فى فيلا ماجالى، وهنا اختلف انا معك ، فهو فى نظرى - لا لانه ابي ، بل للحقيقة والتاريخ - هو فى نظرى المثل الأعلى فى الوفاء والحب والتضحية، لم يفكر فى عدم الوفاء لزوجته المريضة ونذر نفسه لرعايتها فى ايمان واخلاص حتى لفظت آخر انفاسها راضية سعيدة .

ولانهما لم يظهر الا على هامش حياتنا فقط ، ولم تتوطد صلاتنا بهما لبعده الشقة بيننا وبينهما ، باعتبارهما جيلا ثانيا بالنسبة لى و لك فنحن لا نراهما الا اشباحا غير واضحة ، وخطوطا باهتة لا تثير فىنا شديد اهتمام . دون ان نتذكر ان كلا منهما لا بد قد كان ، فى أيام عزه وعنفوانه ، نجما يلمع فى السماء ، وتتركز عليه الأضواء .

وربما حين تجلس بين ابنائك وجفدتك ذات يوم وتستعيد معهم ذكريات الماضى . . تحب ان تذكر لهم شيئا عن جدك الثانى - والد امى لوسيان آيفارد - الذى لا شك انك قد قرأت عنه فى دراساتك ، فقد كان رجلا ذا أهمية كبيرة فى المجتمع الدولى .

فبينما كان جدى لافرنسوا قد نجح فى شق طريقه فى السلك الادارى تحت ظل الجمهورية ، كان جدى آيفارد يلعب دورا هاما فى السياسة الدولية حينما كانت وظيفة السفير اعظم مناصب الدولة على الاطلاق .

أتعلم ان امى لم تهنا قط بالإقامة فى منزل دائم منذ ولدت الى ان اقامت فى فيلا ماجالى بضاحية لوفيسينيه ؟ فلقد كانت تنتقل من سفارة لأخرى فى عواصم الدنيا ، ثم بعد ان تزوجت ابي ظلت تنتقل معه بين مختلف المحافظات الفرنسية منذ ان احتل فى شبابه منصب السكرتير العام حتى غدا محافظا مرهوب الاسم والجانبى فلقد ولدت أمك فى بكين - وتعلمت القراءة فى احد اديرة بيونس ايرس قبل ان تذهب الى استوكهولم وروما ثم برلين .

وكذلك كانت أمها من قبل . ولدت على أرض أجنبية ، وكان اسمها ( كونسويلو كافيز ) ابنة وزير كوبا المفوض في لندن ، وهناك تقابلت مع جدى فى إحدى الحفلات الدبلوماسية حين كان يعمل سكرتيراً لسفارتنا .

واننى - مثلك يا ولدى - أكاد أكون خالى الذهن تماما عن ذلك الطراز من الحياة التى لم تشهدها عيناي والتى لا شك فى أنه قد أصابها كثير من التعديل منذ تلك السنين الماضية حتى الآن .

وأذكر انى قرأت ذات يوم مذكرات جدى لوسيان آيفارد وهو مجلد كبير من جزاين طبعه أحد كبار الناشرين فى ا فويورج سان جرمان) ، وأطرف ما فيه ذلك الباب الذى يضع فيه الحلول لمشكلات الشرق الأوسط ، وكذا الجزء الذى يلقى فيه كثيراً ومزيداً من الأضواء على سياسة الداهية بسمارك فى الملاحه لمسألة دول أمريكا اللاتينية مما يؤكد عمق تفكير جدى وأهمية الدور الذى لعبه على مسرح السياسة الدولية ، ولقد وقفت طويلاً عند تلك الفقرة التى يقول فيها :

« كانت لنا مصادرنا الأمانة الخاصة التى تزودنا بالحقائق المجردة الخطيرة ، وتمدنا بسيل لا ينتهى مما يدور خلف الكواليس وبين ردهات القصور وجدران المكاتب الصماء التى يقف على أبوابها الحراس المدججون بالسلاح من احاديث سرية حتى لا نعاجز فى أى وقت بما ليس فى الحسيان . ولقد كان من واجبنا أن نبتمس فى وجوه أعدائنا : نظهر خلاف ما نبتن ، ونضحك ملء أفواهنا فى أشد الأزمات وأحرج الأوقات ، وتقيم حفلات الاستقبال . وهناك بين الرقصات وكؤوس الشراب وغمزات الأعين ورنين القللات وعبارات المجاملة والترحيب ، تحاك أخطر المؤامرات السرية ممزوجة بقصص الحب والهيام ! » .

ولم تكن أمى وشقيقاتها - بحكم اختلاطهن - غارقات لأذانهن فى تلك الحياة الصاخبة فحسب ، بل كانت - جدتك - تلعب أهم الأدوار والمعها على مسرح السياسة العالمية فى عصر فيه كثير من العروش الضخمة على الزوال والانهار ، ولم تكن أسماء ادوارد السابع وليوبولد الثانى والمقيصر أو الارشيدوق العظيم بالنسبة لها

مجرد أسماء تتردد في الصحف أو بين كتب التاريخ ، بل مخلوقات من لحم ودم كثيرا ما ظهرت أسماءهم من بين طالبى مراقصاتها .  
ومن المؤكد أن جمالها كان فاتنا ، ولوحتها الباستيل المعلقة على جدار غرفة مكتبى تشهد بذلك ، ولكن أهم ما كانت تتميز به هو روحها المرحة وجراتها المذهلة ، مما جعلها المع والاشهر نجوم المجتمع فى ذلك العصر ، وكان ذلك منها أمرا شاذًا غير مألوف بالنسبة لعادات وتقاليد تلك الأيام ، التى كانت تتسم بكثير من التحفظ وخاصة بالنسبة للنساء .

وكانت فى الثامنة والعشرين من عمرها ، عندما شغل أبوها منصبا خطيرا فى وزارة الخارجية ، وفى تلك الأيام جمعها القدر مع أبى الذى كان يكبرها بأربعة أعوام .

وكانت شقيقاتها جميعهن قد تزوجن وقرن فى بيوتهن ماعداها وعرف الناس جميعا أنها لن تتزوج أبدا لأنها فتاة طائشة جموح تملكها الفرور ، ولن يقدر أحد على كبح جمالها ، وأنها لن تسلم قيادها أو قلبها لآى انسان !

ثم وقعت تلك الحادثة المؤسفة التى أخبرتنى بها شقيقتى ، ولست أدري من أين عملت بها وعن أى طريق ؟ فمن الثابت أن أحدا لم يذكرها على لسانه قط فى بيتنا .

كانت المبارزات شيئا نادرا فى عام ١٩٠٣ بل حرمها كثير من القوانين ، وان وقعت فى بعض الظروف فنسبة اقل بكثير مما اعتاده الناس فى أواخر القرن الماضى حين كان المسدس والسيف أو الخنجر هو أسهل الحلول لكل المشاكل مهما اختلفت أنواعها بين أفراد الطبقات النبيلة .

وفى تلك السنة لقي أحد من تعرفهم - أمى وهو كونت ايطالى - يحتفه فى مبارزة بالسيف ، وأكبر ظنى أن المسألة بدأت فى ملهى مكسيم ، وفى إحدى السهرات الصاخبة حين مضى أحدهم بلقى بعض الفكاهات اللاذعة التى تسمى سيرة ابنه السفير آيفارد وكان المتحدث أحد نبلاء دول البلطيق .

وشهدت غاية ( ميودو ) فى ساعة مبكرة ذات صباح ، مبارزة لم تستغرق سوى دقائق ، التحم فيها سيفان ، ثم كانت الخاتمة

السريعة حينما ظعن النبل البلطيقى - قريمه للكونت الايطالى  
طعنة نجلاء مات على اثرها ، واضطر أن يفادر باريس على عجل ،  
وظل محروما من رؤية ابوابها حتى بعد الحرب العالمية الأولى .

اما فى ايطاليا فقد أعلن الحداد على الضحية المسكينة ، وكان  
لمقتله صدى كبير ، ولست أدري هل الأسرتان مازالتا تحتفظان  
بذكرى ذلك الحادث الأليم ؟ وهل ترى يقص العجائز والشيوخ على  
أولادهم وحفدتهم فى ليالى الشتاء قصة جدتك والدور الذى لعبته  
بطريق غير مباشر فى حياتهما ؟ .

ولعلك سمعت أمك - حين يثور بيننا نقاش لسبب ما يخرجها  
عن طورها - وهى تهتف فى حدة :

- أراك تداوم على تسفيه آرائى لأنى لست من أسرة  
لافرنسوا !

أو تحدجك ببصرها - فى بعض الظروف - حين تشمخ بأنفك فى  
وجهها عزة وكبرياء ، فتقول لك غاضبة : - حقا انك لمن أسرة  
لافرنسوا !

فهما حاولت لن تستطيع أن تنسى أنها انحدرت من قوم بسطاء  
لم يكن لهم شأن كبير فى المجتمع ، ومن ثم فهى تكن لى - بدون  
قصد فى أعماق لاشعورها الباطنى - ضفينة خفية ، تطفو  
فى المناسبات غير السارة فتبعث فيها اعتقادا بأنى أزدريها لذلك  
السبب برغم أنى - وأؤكد لك ذلك - لا أعير هذا الأمر أدنى  
اهتمام . وذلك الحسب والنسب الذى يقف دائما شبحا بيننا -  
أنا نفسى - أود من أعماق قلبى لو انساه ولا فضل لى فيه ! .

وليس ثمة شك فى أن أى زواج لايعنى مجرد ارتباط شخصين  
لا غير ، بل هو فى الحقيقة اندماج أسرتين وعشيرتين لكل منهما  
تاريخها وأخلاقتها وطباعها ونظام حياتها ، ولا بد من حدوث اصطدام  
بينهما ليتم التمازج المطلوب ، ولا بد من أن يتغلب الطرف القسوى  
منهما على الضعيف ، فيسير فى ركابه ، ومن ثم تتراجع العشيرة  
الضعيفة بين الظلال ولا تلبث حتى تختفى فى زوايا الاهمال والنسيان  
ولكن بعد أن يتخلف عن ذلك الصراع الخفى شعور بالمرارة ثم يزول  
بمضى الأجيال .



ولم أكن أعرف ذلك ، ونحن فى مدينة كان ، بلّ ولم أفكر فيه  
بتاتا ، وأستطيع ان اعترف صراحة بأنى ادركت ذلك للمرة الاولى ،  
وشعرت بأنى سليل أسرة لافرنسوا وأحمل اسمها ، حين ولدت  
انت ، وصفعتنى الحقيقة التى لامفر منها من أنه سيكون لى وريث  
يحمل اسمى واسم الأسرة من بعدى ! .

ولم تكن الهوة التى تفصل بين أبى وامى بمثل اتساعها بينى وبين  
أمك ، كان الأولان من «عالم» واحد ، بينهما تكافؤ فى المركز  
الاجتماعى ، وكلاهما كان يبرز اسمه فى عمود الاجتماعيات اليومى  
بالصحف السيارة من أمثال «الجولوا» والفيجارو ، باعتبارهما  
من البارزين واللامعين فى المجتمع الذى تهتم الطبقات الأخرى بتتبع  
أخباره .

كانت هناك بعض الفوارق الهينة - بلا ريب - وكان آيفارد قد  
أنفق جزءا كبيرا من ثروته وتضاعل رصيده عن ذى قبل ، وخاصة  
بعد أن زوج أربعا من بناته ودفع لكل منهن دوة كبيرة تناسب  
مقامه كسفير معروف ، لكنه مع ذلك ظل محتفظا بمركزه ومهابتة  
فى نظر الخاصة والعامة فى الوقت الذى كان فيه لافرنسوا العزب  
يمثل الطبقة الأرستقراطية القديمة بشيابه التقليدية المضحكة . .  
ونفخته الكاذبة .

وكان أبى - بعد أن انتهى من دراساته فى القانون - قد اختار  
لنفسه الانخراط فى سلك الوظائف الإدارية داخل فرنسا ، لاشباع  
هواية خاصة فى نفسه وكان فى استطاعته لو أراد أن يشغل وظيفة  
ممتازة فى الخارج .

وشاءت المقادير أن يتقابل هو وامى فى إحدى الحفلات الرسمية  
الراقصة ، ولم يكن قد مضى على تلك المباراة وقت طويل ، ومازال  
صداها يتردد فى كل مكان ، فأحبها .

أرايت اذن لماذا طلبت منك ان تتأنى قبل ان تتعجل فى حكمك  
على ظاهر الأشياء ؟ فتلك العجوز البدينة المتورمة التى لم ترها قط  
الا غارقة ساكنة فى مقعدها الكبير ، عينها مشدودتان للأمام فى  
نظرات شاردة ساهمة ، كانت فى عصرها اجمل واذكى بنات باريس  
وأحدهن لسانا ، بل أشهر من نار على علم ! .

واعتقد أن أبى - الذى كان يصغرها بأربعة اعوام وهو قارق لا يستهان به فى تلك المرحلة من العمر وكان قد تخرج لتوه من الجامعة - لم يكن شديد الإعجاب بها فحسب ، بل بأبيها أيضا .

فقد كان لها - برغم تجاوزها فترة البلوغ - مئات من المعجبين ممن هم ألع مستقبلا من أبى ، يتهاكون تحت أقدامها ويلتمسون رضاها ! .

وصارحنى أبى ذات يوم قائلا:

أوشكت أن أقبل العمل فى السلك السياسى خارج الجمهورية اعتقادا منى أنه قد يرضى أمك . .

فهل كانت قد سئمت السفر والترحال بين مختلف الممالك والدول ؟ ربما ! ولا تنس أنها كانت تنعم فى تلك الفترة بمتعة الاستفرار فى فرنسا واكتشفت ذلك لأول مرة فى حياتها . وكانت فيلاماجالى - هى قصر آل أيفارد الريفى ، وهناك كان أبى يزور خطيبته أيام الأحاد .

وكان أبى جميل الشكل أنيق الهندام قوى البنية ممشوق القوام ، اذا قلت أنه ورث الجسم والعقل عن آباءه وأجداده لم أكن مبالغا . وقد ظل محتفظا بكل ذلك حتى بعد أن بلغ من العمر عتيا ! . وما أريد أن أوضحه ، هو أنه كان قد استهواه بريق منصب السفير ومركزه الاجتماعى العظيم ، كما تاق الى دخول ميدان المعركة واقتحام قلب والدتك ، ذلك الحصن المنيع الذى استعصى على مهاجميه ممن هم أقوى وأخطر شأنا منه . .

وربما كان قليل الأمل فى الفوز بيدها اعتقادا بأنه غير جدير بها أو كفاء لها ، وظل يحلم بقربها حلم الظمان للماء ، وكان امتنانه لها كبيرا حينما قبلت أن تكون شريكة حياته دون الناس أجمعين ، واعتبر ذلك نزولا منها وتضحية عظيمة لا يستحقها .

هل كانت تشجع بنفسها ذلك الشعور فيه ، لست فى موقف يسمح لى بالإجابة عن ذلك ، وليست لدى المعلومات الكافية حتى أستطيع . وأصارحك الحق ، فأنا اعتقد يقينا أنها كانت تشعر بالمتعة حينما تلمس فيه اعترافا بالجميل الذى طوقت عنقه به . . وهى التى عاشت طول حياتها تملأ أذنيها عبارات الاطراء والإعجاب

بجمالها من أكثر من مليونير كان مستعداً لأن يلقي بثروته تحت  
أقدامها لأول إشارة أو نظرة رضاء ، وانتهى بها المطاف لأن تفضل  
عليهم شاباً تكبله قيود الوظيفة ، محدود الدخل ، تنتقل معه في  
مساكن المحافظات الحكومية الرطبة . . وتضطر للانصات الى ثرثرة  
عجائز الفلاحات وزوجات الزارعين والموظفين بعد أن كانت نجمة  
تسطع تحت أضواء ثريات الحفلات الدبلوماسية ترمقها العيون في  
حسد و إعجاب ، حياة غريبة صغيرة تختلف تماماً عما اعتادتها .

ومازلت أذكرها وهي في قمة جمالها ، كانت رائعة حقاً كأنها  
فينوس ، بل إن جمال أمك يبدو متواضعاً بسيطاً بالنسبة لها .

ولقد أنجبت اختي أولاً ، وبعد ذلك بأربعة أعوام أنجبتني ؟  
و حينما بلغت الثانية عشرة من عمري وكنا قد انتقلنا لمدينة  
« لاروشيل » أصيبت بذلك المرض الخبيث الذي هدم سعادة أبي  
وحطم آماله ! .

كانت في الخامسة والأربعين وقت ذاك . . وتشهد اللوحات  
التي رسمت لها في ذلك الحين ، بأن الزمن لم يترك أى أثر في وجهها  
وظلت محتفظة بفتنتها وجمالها ، ومازلت أتذكر أنى في طفولتى ،  
كثيراً ما كنت أندس بين ذراعيها واحوط رقبتها بساعدى قائلاً:  
- ما أجملك ! .

و كنت أقول لرفاق طفولتى مفاخرات:

- أمى أجمل امرأة فى الوجود .

فهل أصابتها عين الحسد ، أو لعل نشاطها وحبوبتها !! : دفقة  
قد أحدثت خللاً ما فى جسمها القوى ؟ .

ومهما كان الأمر ، فقد شعرت ذات يوم بالحمل ، ولا بد أنها  
لم تكن تتوقع حدوث ذلك مرة أخرى ، الأمر الذى أثار الشك فى  
نفسها .

وانطلقت لزيارة الطبيب وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامتها  
المشرقة ، لعلها كانت تخفى ما فى نفسها من قلق ، بيد أنها حينما  
عادت الى البيت كانت كأنما قد هبط قناع مخيف على وجهها .

ومازلت أستعيد فى نفسى ذكريات ذلك اليوم ، كان يوم الخميس

من أكتوبر ، ولم يكن عندنا مدرسة في ذلك اليوم ، فألحقت عليها  
أرجوها أن تأخذني معها فقالت :

– ليست زيارة الأطباء مما يبعث السرور في النفس .

وكان رجلا طويل القامة جدا ذاشارب كث صغير ورأس بيضاوى  
مستطيل ، كثيرا ماشاهدته في حفلات الاستقبال بدار المحافظة . .  
كانت قد خرجت في الثالثة ، وحتى الرابعة مساء لم تكن قد  
عادت ، وتحديث أبى من مكتبه في التليفون يسأل عنها .  
– هل عادت ماما ؟ .

– لم تعد بعد .

وكرر الاتصال والسؤال عنها بعد ذلك مرتين أو ثلاثا ، ولم أكن  
أعلم وقتئذ أنهما كانا يتوقعان انجاب طفل ثالث ، أخ أو أخت  
جديدة ، وكانت عمك آرليت في الخامسة عشرة من عمرها . . .  
تستقبل بعض صديقاتها البنات في غرفة الجلوس .

واذكر حينما عادت امى وطبعت على جبينى ابتسامة شاردة، أنها  
لم تكن وقتئذ على ما يرام ، فسألتها وأنا أرنو الى وجهها العابس:  
– ماذا قال ؟ أريضة أنت ؟ .

– لا تشغل بالك ، أشعر بتعب بسيط .

– لقد اتصل أبى عدة مرات يسأل عنك . . .

فابتسمت ورفعت المسماع .

– فيليب ؟ . هأنذا قد عدت .

ويبدو أنه وجه اليها سؤالا ، اجابت عليه بضحكة قصيرة  
مفتصبة .

– كلا ، ليس ماتوقعناه ، أشعر بخيبة الأمل ؟

ولا بد أنه قد وجه اليها سؤالا آخر ، فقد اجابته في عجلة :

– سوف أقول لك حينما تعود ، ان الين يقف بجوارى ، لا ، لا ،

ليس الأمر خطيرا فيما اعتقد .

وفاجأتها بعد ذلك يتهامسان في احد الأركان ، وكان الوجوم  
يخيم علينا في العشاء ، وأرسلونى لفراشى مبكرا على غير العادة ذلك  
المساء .



ولم يدر بخلدي وقتئذ انى اوشك ان افقد امي ، او على الاقل  
امي كما كنت اعرفها ، وان ابي كان على وشك ان يفقد شريكة  
حياته .

وفي السابع والعشرين من اكتوبر - وهو تاريخ لن انساه  
وسيظل محفورا في قلبي - انتقلت الى احدى المصحات المحلية،  
بعد ان قبلت اختى وقبلتنى ، وودعتنا باحدى مداعباتها وفكاهاتها،

ولم يكن ما ظنوه حملا في بادىء الامر الا وربما خبيثا وحينما  
عادت بعد اسبوعين لم يكن قد بدا عليها شيء ظاهر حتى خسدعنا  
جميعا ومضينا نتساءل عن سبب ذهابها للمصحة ، كانت قدهادت  
لطبيعتها وراحت تتحرك في نشاط بين ارجاء البيت كسابق عهدنا  
بها ، ولكننا بعد مضي فترة من الوقت بدأنا نلاحظ تغيرا واضحا  
يطرا على ملامحها ، فقد ظهرت التجاعيد فجأة في وجهها ، وبدأ  
على جسمها الرشيق بعض البدانة والترهل .  
واذكر أنها كانت تقول في تلك الفترة :

- أعلم انه ينبغي ان اقوم ببعض التمرينات الرياضية ، ولكنى لا  
أشعر بأى حماس .

وأجريت لها جراحة أخرى في مارس ، وفي اغسطس كانت قد  
صارت من البدانة بحيث لم يعد أى ثوب من ثيابها يدخل في  
جسمها .

ومنذ ذلك الحين وأنا لا اكف عن بحث حالتها مع اصدقائي  
الاطباء وخاصة مع كبار الاخصائيين الذين يعملون في المؤسسة  
معى ، واختلفت آراؤهم جميعا ، كل منهم يعتقد انه عرف نوع المرض  
وسببه دون ان يصلوا الى قرار حاسم . ولكنهم اجمعوا على ان تلك  
البدانة كان محتما حدوثها عقب الجراحتين اللتين اجرينا لها ، وقد  
اثرتا على وظيفتها الجنسية كامرأة ، الامر الذى كانت نتيجته  
الطبيعية انهيار مفاجيء في اعصابها ويأس مرير في اعماق قلبها .

ومع ذلك كله فلم اجد فيه مايقنعنى ، واشعر انه لم يكن كافيا  
لاقناع ابي ، واذا كان قد وصل بطريق الحدس والظن الى ماوصلت  
انا اليه فلايد انه كان مثال الشجاعة والاخلاص والوفاء اذ ظل انى

جوارها مضجيا براحته وسعادته وحقوقه كزوج طوال تلك الأعوام  
التي انقضت حتى ودعها الوداع الأخير

وحانت اللحظة التي اضطرت فيها للاستسلام ، ولم تجد مفرا  
من أن تنسحب برضاها من الحياة العامة .

وقال أول من جاء من الأطباء لزيارتنا زيارة مفاجئة ، فقد كانت  
ترفض دعوة أي منهم لفحصها :

- نورستانيا سوف تشفى منها بعضى الوقت .

ولكنها لم تشف قط بل مضت حالتها تزداد سوءا ، وراحت فى  
الأسابيع الأولى تنفرد بنفسها تدفن نفسها بين جدران غرفتها لا  
تكلم أحدا أو تخاطب انسيا .

ومن ذلك تدرك يا ولدى أن الشيخوخة وحدها لم تكن هى سبب  
تلك النظرات الشاردة الخالية من معانى الفهم والحياة ، والتي  
روعتك وأخافك منها ، فقد سبقتك أنا ومررت بنفس تجربتك ولم  
اكن قد تجاوزت سنك الآن ، وكانت قد اتزوت عنا بعيدا فى عالم  
خاص بها ، وفقدت كل اهتمام بنا أو بأى شىء حولها .

وليس من حفى أن احكم لها أو عليها ، بل لست املك الصلاحية  
التي تؤهلنى لأن أكون قاضيا ، بيد أنى مازلت أذكر كيف كانت  
تتملكنى الحيرة ويستبد بى الغضب وأنا ألمح أصدقاء نبي من كبار  
الأطباء يقطبون جباههم ، وهم يبدون شديدا تأثرهم وعمق مواساتهم  
لنا جميعا .

وفى اعتفادى ، أنه قد ساءها - وهى التى كانت محط انظار  
الرجال - أن تفقد عرش الجمال الذى تربعت عليه طويلا . وربما  
اشتد بها اليأس الى حد الرغبة فى أن تلاقى الردى حينما اكتشفت  
أن بعض الجراح قد حكم عليها بالشيخوخة المفاجئة قبل الأوان  
لست أدري تماما .

\*\*\*

نفضت يديها من كل شئون الدار ، ولم تعد تلقى أوامرها  
وتعليماتها للخدم ، وكنت ألمح أبى وهو يعد قائمة الطعام مع الطباخة  
كل صباح وقبل أن ينطلق لمكتبه ، وكانت تحضر فى بعض الأحيان  
بعض الآداب الرسمية ، تجلس فى صمت وفى وجهها نظرة شاردة

بلهاء ، وعلى شفيتها ابتسامة غريبة لا معنى لها ، وكان أبى - قى  
الأيام الأولى - يضطر للاعتذار بعرضها الى مدعويه .

ومن أجلها - رفض الذهاب الى فرساي - حينما عرض عليه  
ليشغل منصبا خطيرا كان سيتوج مستقبله العظيم ، منصب مدير  
البوليس فى باريس !

ولكنى أسارع فأقرر لك ، أنها لم تكن مسئولة قط عن تركه  
منصبه الحكومى واعتزاله الحياة فى ضاحية « لوفيسينيه » بين  
جدران فيلا ماجالى .

كنت أنا وحدى المسئول عن ذلك ، ولم يكن لأمى اى ذنب او  
يد فيما حدث أو ترتب عليه .

كان ذلك بسبب مأساة ١٩٢٨ التى أتحمّل مسئوليتها كاملة .

\*\*\*

وربما كان من واجبى أن أشير الى وجهة نظر شقيقتى فى تلك  
الحالة الغريبة التى أصابت أمنا ، فهى تزعم أنها تعرف من أسرار  
عائلتنا أكثر منى ، ولا أجد مفرا من أن أعترف لها بذلك ، فهى  
بوصفها كانت تكبرنى سنا قد كان لها من الرشد ما أتاح لها أن  
تعرف أمى خيرا منى ، وقبل أن يطرأ عليها ما أصابها أو لعلها فى  
إثناء وجودها بباريس قد عرفت ما لم يصل الى اذنى .

حسنا ، انها تقول - تحت مسئوليتها - ان أمى لم تتزوج أبى  
قط لأنها شعرت نحوه بحب او ميل اليه . . بل لان قلبها كان قد  
تحطم اخيرا على صخرة غرام فاشل أطاش صوابها ، فاندفعت  
بدون تفكير تلتمس اليابسة ، أبة يابسة تعرض لها بين الأنوار ،  
وهكذا اقتنصها أبى ، وبرغبتها ابتعدت عن باريس مهتد الحب  
والجمال منزوية عن الأضواء ، كما تفعل أبة راهبة حينما تدفن  
نفسها باختيارها فى احد الأديرة البعيدة عن العمران !

- أما تستطيع أن تقدر مدى التضحية التى أقدمت عليها حين  
تركت الحياة فى باريس حيث الحفلات والسهرات وحياة  
السفارات ، لتدفن نفسها فى احدى محافظات الريف مع موظف

صغير ؟ انها لم تتزوجه املا في مستقبل زاهر مشرق ، بل تزوجته هربا من ماضٍ مكروه ، ومما يؤكد لك ذلك انها حينما خطبها ابي لم يكن قد حدد بعد مستقبله وميدان عمله ، وكان في وسعه ان يشغل وظيفة ممتازة في وزارة الخارجية او على الاقل منصبا ثابتا محترما في العاصمة باريس نفسها ، لكنها اصررت على ان يقبل تلك الوظيفة الادارية في المحافظات ، حيث تنتقل من محافظة لآخرى في اعماق الزيف ، وكأنما هي تتعمد الانتقام من نفسها !

و حينما بدأت احتج معارضا استطردت تقول :

- لم تكن وقت ذاك الا طفلا صغيرا ، تنظر الى الامور في منداجة وبراءة بلا دهاء او عمق في التفكير ، لم تذهب قط الى المآدب والخفلات التي كان يقيمها ابواك في دار المحافظة ، حتى ترى كيف كانت تبدو مشحونة الطاقة ، لكنها طاقة مصطنعة ، ومرح مفتعل يخفى خلفه مرارة مدفونة في اعماق قلبها ، كانت تمثل دور المضيفة السعيدة التي تطير بشرا وبرورا امام طائفة من العجائز الثرثرات وبناتهن العوانس ممن قاتهن قطار الزواج ! الا تدرك اذن انها كانت تسخر منهن في اعماقها ومن نفسها ايضا ؟

ربما كان ذلك صحيحا ، بيد اني اعتقد - وابحث عن وسيلة في نفسي حتى اعتقد - انها كانت تحب ابي برغم كل ما سمعت .

اما هو فقد كان شاكرا لها - مدى حياته - اختيارها وتفضيلها اياه دون سائر المعجبين بها وكان يعتبر نفسه مسئولا عن توفير كل اسباب السعادة لها ، ويرى - والحزن يقطع نياط قلبه - انه سبب ما اصابها من مرض وخبل !

وارجو الا يكون هذا غير مفهوم لك ، اذا قرأته قبل ان تتسلح بالتجربة والايمان ، بيد ان هناك من الحقائق ما قد تبدو عسيرة الهضم ، ثقيلة التفسير والفهم ، وقديما كان هناك بوسيس وفيلمون الاغريقي او ناعسة وزوجها ايوب المصري : بوسيس او ايوب يسقط صريع المرض ، ويتورم جسمه ويمتلئ بالبثور وما تحت جلده الباهت بالماء العفن ، ويبدو كجيفة كريهة المنظر والرائحة تشمئز



منه الناس الا حبيبتة فيلمون الاغريقية ، او ناعسة المصرية، نضحى كل باعز ما تملك فى سبيل ارضائه ورعايته وتمريضه !

كذلك قررت لى شقيقتى - فى صيغة التأكيد - ان امى لم تحبنا قط . لا انا ولا شقيقتى ، وكنا فى نظرها شرين لابد منهما ؛ ضاعف من رباطها بالرجل الذى لم تشعر نحوه باى حبا !

واكاد اميل الى الاخذ بوجهة نظرها حينما اطلقت حولى فيما يحيط بى ، فأبدأ أرتاب بدورى فى احتمال أن الحب الاموى حقيقة قائمة فى قلب كل ام ! لا انكر انها عاطفة غريزية موجودة فعلا ، ومع ذلك فانى اقطع بأن كثيرا من الامهات لا يشعرون به ابدا ، او ربما لفترة بسيطة مثل ام الحيوان حتى ينتهى دور الفطام ! .

والعهد ليس بعيد على تلك القضية التى شغلت الراى العام واثارت سخطا شعبيا أشبه بالعاصفة المدمرة ، امرأة ما تزال فى عمر الزهور قرر جميع علماء النفس أنها فى حالة عقلية طبيعية ومستؤولة تماما عن كل تصرفاتها ، قتلت وحيدها الذى لم يتجاوز الثالثة من سنى حياته ، لا لسبب سوى أن محبا لها تحداها ان تفعل ذلك لتبرهن على شدة حبا له !

ولعل مما اثار عاصفة السخط والدهشة فى نفوس الناس ، هو ندرة وقوع أمثال تلك الحوادث ، حتى فى حال وقوعها فنحن - لانا نتبع مقاييس اخلاقية معينة - ننظر الى الجانية باعتبارها اما مجنونة فقدت عقلها ، او سفاحة مصاصة للدماء !

ثم الم نفتح اعيننا فجأة لنكتشف خداع اوهام طفولتنا حينما نكتشف حقيقة العلاقة التى تربط بين آبائنا وامهاتنا ، وندرك انها ليست بتلك الطهارة المثالية الملائكية التى تخيلناها فى احلامنا وقرانا عنها فى القصص الخرافية الصغيرة ؟

لقد لاحظت ذلك بنفسى حينما رأيتك تنكمش وتحجم عن تقبيل امك او دخول غرفة نومنا وانت بعد صغير جدا ، كنت أعرف مدى ما وصلت اليه اكتشافاتك وان لم يظهر ذلك على وجهك ، لان الطفولة البريئة والخجل الغريزى صنوان لا يفترقان ! .

## الفصل السادس

وأخيرا قد أزلت اللحظة الحاسمة حيث لا أجد مفرا من أن أحدثك عن صديقى « نيكولاس » وأيام طفولتى التى يعتبر ذلك الاسم مرتبطا بها ايما ارتباط ، بل رمزا وعلما عليها ، ولسوف يساعدك ذلك على فهم بعض تصرفاتى ازاءك ، وتبرير كثير من الأسئلة التى كنت أوجهها اليك والتى طالما أثارت غضبك !

- هل تعرفت بصديق جديد ؟ .

كانت ظنوتى تصدق كلها دون حاجة لأن أزعج فى نفسى السحر أو التنجيم ! فحينما تبدأ فى استعمال اشارات بيدك جديدة عليك ، أو تعبيرات ومصطلحات لم تكن تعرفها أو تغير شيئا من مظهرك : طريقتك فى تنسيق شعرك أو عقدك رباط رقبتك مثلا - افهم أنا فى الحال أن عنصرا جديدا قد دخل فى اطار حياتك . وربما أفاظك أنى كشفت ذلك الطارئ الجديد عليك ، الأمر الذى يفهم منه أنك ضعيف الشخصية ، سريع التأثير بالغير برغم أنى كنت أحاول قدر جهدى ان اكيف أسئلتى فى لباقة وبطريق المداعبة كما يفعل الأصدقاء وبلهجة رقيقة هينة حتى لا أهيج شعورك أو أثير انتباهك .

وعلى عكس ذلك تماما ، كانت تفعل والدتك . فهى اجرا منى واحد لسانا ، لأنها تعتنق مبادئ مستقيمة صريحة فى التمييز بين الصواب والخطأ ، وفيما ينفعك أو يضرك ، ولا تؤمن بالأشياء الوسط أبدا ، ومن ثم فهى ترى أن من حقها عليك أن تختار بنفسها أصدقاءك .

وهى لا تكف أبدا عن اتهامى بأنى اتخاذل فى اداء واجباتى الأبوية حيالك بترك حبل العنان لك ، وانى لأرجو من كل قلبى الا تفودك قدماك فتقع فى مأزق يهدد مستقبلك ، حتى لا ألومنى نفسى وأحملها تبعة ذلك .

ولا أخفى عنك انى أخشى ذلك اليوم ، بل أن مجرد التفكير فيه يقلق منامى ويزعج أحلامى ، وكلما صلب عودك واشتد مساعدك وطالت قامتك اشتد خوفى عليك، ولا أحسب الا ان كل الآباء فى مثل

حالتى : اكبادهم تسعى على الأرض ومع ذلك فربما كنت اكسرهم حساسية .

ومهما كان الأمر فلو كانت أمك مكان أبوى ما استطاعت ان تحول دون نمو صداقتى بنيكولاس ، ولا اذكر لقبه لأسباب سوف تعرفها فيما بعد .

وقد تعرفت به بحكم الزمالة - وأنا فى ليسيه لاروشيل - حين كنا فى الفرقة الخامسة ، وظللنا ثلاث سنوات كاملة لم تتعد علاقتنا زمالة الفصل العادية التى تحدث دائما بين التلاميذ .

كان أطول منى قامة ، أحمر الشعر بجلد يديه ووجهه بقع حمراء صغيرة ، لكنه كان يمتاز بعينين زرقاوين باهتتين فيهما رقة وجاذبية .

وعلى خلاف ما تعتقده ، او يظنه غيرك من الناس ، ليس مما تحسد عليه ان تكون ابنا لمحافظ الاقليم وانت بعد طفل صغير فى أول مراحل دراستك ، ما من شك فى انه قد يسرك ان تجد كل من حولك يخاف ان يلمسك النسيم ، وفى مركز ممتاز ووضع فريد ، لكنك تلقى نفسك فى جو مشحون بالحسد والكراهية وسوء الظن من رفاقك الصغار ، يخشون الاقتراب منك ويتحاشونك وكان بك جربا ! ومن ثم كنت ترانى - بدل ان ازهو وافخر بمنصب ابى الكبير - أبدا متواضعا وديعا كالحمامة ، أكاد أعتذر عن « جرم » لا ذنب لى فيه حتى احطم ما بينى وبين اصحابى من حواجز تحول دون خلق جو من التفاهم والصداقة !

وما كان ذلك تكلفا منى او تظاهرا ، بل هو الحياء الذى ولد معى والخجل الفريزى الذى لم أستطع ان اتخلص منه حتى الآن . كنت اتوق دواما الى الانسحاب من وسط الزحام والانكماش داخل قوفعتى ، مثلما فعلت أمى ذات يوم ، وانسحبت من الحياة العامة تماما والى الأبد .

وكم أحب ان اصف لك شعورى وأرسمه لك فى لوحة بارزة بالوانه الطبيعية، ولعلك لم تلاحظ بعد ان أول ما يفعله الطفل حينما

يتعلم أن يمسك القلم ويحاول أن يجرى به على الورق - هو أن يصنع مربعا مقلقا يمثل بيتا يعتقد في أعماق لا شعوره أنه بيته الذي يملكه ، وذلك المنظر نراه دائما على شاطئ البحر حينما يشرع الصفار في بناء بيوت من الرمال ، كذلك كنت تفعل أيضا . .  
ومن ثم فإن أول ما يلتصق بذاكرة الإنسان هو البيت الذي يعيش فيه بأدق ما فيه من دقائق وتفصيل . سواء أكان بيتا ريفيا عشا أو كوخا من القش أو فيلا أنيقة أو شقة رائعة في باريس ، أو قصرا منيفا به غرف خاصة للبواب والخدم ومصعد أو درج ، وطنافس تغطي الأرض من المدخل ، أو كان أرضا عارية من الحجر أو الملاط ! .

أما أنا فقد اعتدت كلما عدت من مدرستي أن أجد الباب غاصا بالشرطة يؤدون لى التحية فى احترام ، وعلى جانبى الدرج لوحات ارشادية عليها أسهم تشير الى كل اتجاه :

« الطابق الأول - القسم الثانى - المكاتب الادارية على اليسار .

« الطابق الأول - القسم الثالث - شئون الزراعة والفلاحين على اليمين .

« قسم المستشفيات - الادارة الصحية - ادارة العمل - ادارة الاسكان »

« فى الجهة الأخرى من الفناء - الدرج رقم (ج) . . . »

فقد كنا محوطين بكثير من الابهاء والممرات وأكثر من درج ، تهب منها التيارات الهوائية ، وما زالت ذكراى الأولى عن أبى مرتبطة بصورة احد السعاة ، وهو رجل اشيب عجوز يجلس الى نضد صغير امام الباب المفطى بطبقات اللباد والمطاط .

وكان الطابق الذى نشغله لسكاننا متسع الأرجاء مرتفع السقف جدا ، وطالما سمعهم يصرخون بى : حذار ان تلوث السجادة ! .

كانت التقاليد تقضى بأن تغطى كل الجدران بقطع من السجاد النادر ومجموعات من الأطباق الثمينة الملونة واللوحات الزيتية الرائعة مما يليق بمقام المحافظ .



وكلها أموال اميرية لا نملك منها شيئا ، فكل اثاث البيت مملوك  
للدولة ! .

- اش ! .

وترفع مريبتى سبابتها الى فمها محذرة :

- لا ترفع صوتك ، ان السيد المحافظ يستقبل ضيوفا .  
لم اكن مثل باقى اطفال هذه الدنيا ومن لهم أب وام ، اشقاء  
وشقيقات ، خادم او مجموعة من الخدم والوصيفات ، كنت محاطا  
بمجموعة من الناس اكرههم جميعا ، واعتقد انهم يمارسون سلطات  
كريهة لتقييد حريتى والحد من حقوقى الطبيعية فى ساعات طعامى  
وشرابى ولهوى ونومى ، يحركوننى كالدمية اينما وحيثما شاءوا.  
حتى فى سويغات رغبتى فى لقاء أبى وامى !

فتلك النعم والميزات التى كان رفاقى الصغار يحسدوننى عليها  
لم تكن فى نظرى الا لعنة بفيضة الى نفسى وددت لو افر منها الى  
عالم أتمتع فيه بشىء من المرونة والحرية ! .

كل انسان ما عدانا ، وما عداى كان له الحق فى ان يستحوذ  
على وقت أبى واهتمامه ، أولهم واشدهم جرأة هو المسيو كورنير  
مدير مكتبه الخاص ، ثم سكرتيرد الخاص ، ويليه مدير و الاقسام ،  
وكانوا اربعة من الكبار ، ثم كبار الزوار من الحيشيات الذين يعدون  
للمدينة ، وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب فى المقاطعة والبارزون  
من زعماء النقابات ومن الناخبين واخيرا أصحاب المظالم والشكايات .

وربما أتيح لنا بعد لاي وجهد شديد ان نجلس معه مرئير كل  
اسبوع على مائدة العشاء نتناول معه الطعام فى جلسة عائلية خاصة  
وحتى ذاك لم تكن نهنا به ، فكثيرا ما كانوا يطلبونه للتليفون ، فيترك  
طعامه او ينهيه على عجل ليستقبل شخصا ما فى مهمة سرية عاجلة .

وفى الثانية عشرة من عمرى ، كان قد بلغ ضيق صدرى من  
تلك الحال حدا كبيرا حتى كدت أشعر بعدم الرضا نحو أبى لرضاه  
بذلك الذل وتلك العبودية التى تكبله بقيود حديدية لا يستطيع منها  
فكاكا ، والتي تحول دون ان يستمتع بحياته العائلية ، ودون ان يستمتع

به بوصفه أبى ؟ يرعائى ويولينى نصيباً من حبه واهتمامه كما يفعل  
مساتر الآباء .

كان رفاقى فى المدرسة يحسدوننى او يغبطوننى على تلك  
التحيات العسكرية التى القاها من الشرطة اينمسا ذهبت دون ان  
يخطر ببالهم ازمى النفسية الخائفة التى كنت امر بها مما يجعلنى  
أكثر منهم حسدا لهم .

وبطبيعة الحال بمضى الوقت ولما اشتد عودى ونضج تفكيرى  
اكتشفت مدى ما كنت اتخبط فيه من أفكار سوداء خاطئة ، وما  
أردت الا ان أصور لك يا ولدى طريقة تفكيرى وأنا فى مثل سنك .

والاقامة فى دار المحافظة فرصة طيبة تسنح للانسان حتى  
يرى كل ما يدور على المسرح من خلف الكواليس ، شاء أم لم يشأ ،  
وينظر بعينه كيف يجذبون الخيوط الرفيعة التى تحرك الدمى ! .

ولقد حدثتك فى مرة سابقة كيف حصلت على وسام اللجيون  
دونور ، وذكرتنى ذلك بمحادثة تليفونية سمعتها ذات يوم ، كان  
أبى يضع المسامع على أذنه منصتاً وهو فى الوقت نفسه يقرأ  
باهتمام فى صحيفة منشورة أمامه ، لم يكن لها أدنى صلة بتلك  
المحادثة ، وكان صوت الرجل فى الطرف الآخر عميقاً به رنة من  
الالحاق والرجاء .

وكان أبى يفهم من وقت لآخر ، وهو يتابع بعينه ما فى  
الصحيفة .

- نعم ، نعم ، فهمت . . .

ومازلت أراه الآن وهو يجرى بقلمه الأحمر خطاً عريضاً تحت  
بعض العبارات فوق الصحيفة ، وأخيراً وبعد أن انتهى الطرف  
الأخر من حديثه سمعت أبى يقول :

- اوافق أنت من أنه لن يرضى بوسام ( سعف النخيل ) ؟ نعم ،  
نعم ، فهمت ، حسناً يا سيدى العزيز ، اتفقنا ، سوف أنقل طلبك  
للسيد الوزير طالما هذا رأيك وتعتبره هاماً وتستطيع أن تصدده  
بوسام الصليب .

ذلك مثل واحد من بين الآلاف ، فما كان يعتبره الناس سرا  
لخطيرا انما هو امر عادى بالنسبة الينا حتى لضى فى مثل سنى . .  
- نعم ، نعم ، اوافق انت من عدم حصول تليفات ؟ سأتصل  
بقورا بمدير الشرطة ، طمئنه يا صديقى العزيز ، قل له الا يقلق ،  
فسوف يتم كل شىء على ما يرام .

وكنت اعتقد فى بادىء الأمر ان ابى مخادع كبير ، او زجل  
شرير يستعمل نفوذه القوى فى عرقله سير الأمور على حسب  
طبيعتها ، فشعرت نحوذ بالفضب .

حتى بين جدران مدرستى لم يكن ضميرى مرتاجا ، وطالما  
ساورتنى الظنون بأن ما القاد من نظرف رفاقى وتلطفهم معى ليس  
أمرا تدفعهم اليه سنجيتهم ، بل لابد أنهم مدفوعون الى ذلك من أولياء  
أمورهم لان لهم ملتزمات ينفون تحقيقها من ابى ، وامتدت تلك  
الظنون الى اساتذتى حينما رأيت احدهم يخرج من مكتب ابى فى  
المحافظة وقال ابى لنا ونحن على مائدة الطعام :

- مسكين هذا الشاب ! الأطباء يقولون ان هواء البحر يفسد  
صحته ، وبرغم ذلك يصدر مدير التعليم أمرا بنقله الى هناك ! لقد  
وعدته بأن اوصى بنقله الى سافواى كما يريد ويحب .

وآباء اصدقائى الصغار كانوا يستغلون فرصة صداقتى ،  
ويعتمدون بأية طريقة على تنفيذ ما ربههم وتسهيل مصالحهم من  
ابى ، وشعرت بحقارة شائى وضعف شخصيتى امام الناس جميعا ،  
قلو لم اكن ابن المحافظ ما اعارنى مخلوق فتيلاً!

وكنت اشعر برغبة شديدة فى ان اصيبح قائلاً : ذلك غش  
وخداع ، خداع!

يبد ان ابى لم يكن مخادعا، كان يؤدى رسالته فى امانة واخلاص  
وضمير يقظ ، ذلك ما اكتشفته بعد حين !

وكنت انا الجاهل الاحمق الذى سمحوا له برؤية ابطال القصة  
من خلف الكواليس ، ولم يفهم قيمة ما يؤدون من ادوار سامية ، بل

اكتفى بالتفرج عليهم وهم يرتدون الثياب ويضعون المساحيق  
والألوان!

ولذلك لم انكر تلك العبارة التي سمعتها يوما ما . من ان عالمنا  
يتألف من نوعين من الناس : فريق يؤدي رسالته الكاملة على اتم  
وجه ، وفريق آخر انما يعيش على هامش الحياة ، كأشباح تتحرك  
بلا هدف مرسوم!

وفي تلك الظروف النفسية التي أوضحتها لك التقيت  
بنيكولاس واتخذته لى صديقا .  
ولم أكن قد أقيت اليه انتباها خلال ثلاث سنوات كاملة وهو  
معى فى المدرسة .

ففى كل فرقة دراسية تمتلىء مقاعدها الخلفية ببعض التلاميذ  
الذين لا وظيفة ولا عمل لهم الا ملء الفراغ حتى ان المدرسين فى  
أغلب الظن لا يشعرون بوجودهم!

وكان نيكولاس أحد هؤلاء ، بطيء الذكاء فاقد الحماس  
للدراسة ، يحتل دواما مقعدا خلفيا ينزوى فيه لا يضر أحدا  
ولا يضره احد ! . فلم يكن من بين أولئك الذين لا يكاد ناقوس  
المدرسة يدق حتى يشبوا على دراجاتهم منطلقين الى ضواحي المدينة  
او الحقول ، كذلك لم يكن من بين تلك المجموعات أو الشلل التي  
تسير معا فى المدرسة فى طريقهم لبيوتهم .

ولم يسترع انتباهى - على وجه التحديد - الا ونحن فى  
الفرقة الثالثة « الصف الثالث » حين صار هواية لا يستغنى عنها  
مدرس اللغة الانجليزية كل صباح ! ولقد علمت بعد ذلك عن هذا  
المدرس الذى فصلته ادارة التعليم لعدم صلاحيته للتدريس انه  
كان يعانى الأمرين من فظاظة زوجته ومعاملتها الخشنة له . .

كان صاحبنا المدرس يخشى سخرية التلاميذ وسلطة أسنتهم،  
فلم يجد طريقة يحمى بها نفسه سوى أن يختار من كل صف تلميذا  
بليدا ضعيفا الشخصية يجعله ضحيته طوال العام ، ليجمعه  
دورا لجميع التلاميذ حتى يبت فى قلوبهم الخوف ويدفعهم الى  
احترامه طبقا للمثل المعروف اضرب المربوط يخف السائب!



قفى كل حصة له كنا نشهد فعلا بينه وبين نيكولاس ما كنا  
نتوقعه لطول ما اعتدنا ، ويظل الصبي الصغير واقفا على قدميه  
وقد احمر وجهه والتهبت اذناه .»

وعرفت من ملاحظات المدرس ان ام نيكولاس كانت تفتح متجرا  
يبيع فيه كل ما يلزم الاطفال قبل الفطام من « القصارى »  
والمناشف والمفارش ، الامر الذى كان يبعث على النكات السخيفة  
والتعليقات الرخيصة من استاذنا المحترم ومن جرى على شاكلته  
من التلاميذ!.

وعرفت ذلك المتجر ، وكان فى شارع « جيتسو » بين محل  
اقصاب اعتدنا ان نشترى منه ما يلزمنا من اللحوم ، ومتجر لبيع  
الادوات الجلدية ، وسرعان ما كنت اعود من ذلك الطريق بصحبة  
نيكولاس فى اغلب الايام .

وكان ابوه قد مات بين جدران مستشفى المجاذيب ، وهو  
تمسخص برغم انه كان يبدو اقوى منى واكثر بدانة كان قد امضى  
عامين يعالج من مرض فى صدره فى احدى المصحات الجبلية مما  
يجعل امه تخشى عليه من التعرض لاي تيسار هوائى ، وتنزعج لو  
اصيب بلمسة برد ، كان قد سمع وقاسى طويلا من المرض مما  
يجعله يتمنى من اعماقه بل عقد العزم فعلا على ان يصير طبيبا .  
وكان يضيف : هذا اذا استطعت ان اجتاز اختبار البكالوريا  
طبعا!.

كان يقولها فى شبه باس لعدم ثقته فى نفسه!

وبقدر ما كان طويلا عريضا كانت امه نحيلة القوام ، ضئيلة  
الجسم ، شاء القدر ان تترمل وهى بعد فى ريعان شبابها ، قمضت  
تكسب قوت يومها فى ذلك المتجر الصغير من ادوات الاطفال  
ولو ازمهم .

وكادت تطير من الفرحة والعرفان بالجميل حينما عرفت اننى  
قد اتخذت ابنها رفيقا لى ، ولم تنس قط ان ابى هو محافظ الاقليم  
مما جعلنى اشعر بعدم الارتياح .

ومما ضاعف ارتباكى انها ما تكاد ترانى احضر برقعة ابنها  
لعمل الواجب المدرسى معا ، حتى تهرول الى نصف الدكان الخلفى  
وتسرع بتنظيفه واعداده حتى يبدو فى مظهر لائق !  
- يخيل الى انك جوعان يا مسيو آلين ؟

واقضى الامر شهورا واضطرت ان احدث نيكولاس مرارا حتى  
كفت والدته عن ان تدعونى بلقب «السيد» ومع ذلك كانت تفعل  
ذلك مكرهة ولم تستطع ان ترفع التكليف معى قط .  
- لقد شاهدت الانسة لافرنسوا تمر من امامى توا مع بعض  
صديقاتها الصغيرات ، يا لها من شابة جميلة ! وما أروع ثيابها  
ايضا! .

ولم اتأثر قط بشخصية نيكولاس لانه كان فاقدها وفاقد الشيء  
لا يعطيه ! كان مثل أمه راضيا أخذا نفسه بالقناعة والاستسلام ،  
ياخذ الحياة كما هي دون تبرم أو احتجاج حتى تلك المعاملة الشاذة  
التي كان يلقاها من مدرس الانجليزية لم تكن تثير فيه أى شعور  
بالضيق أو الغضب على كرامته !

واعتقد انه كان سعيدا ، واكبر الظن انه ما زال كذلك فى قرية  
شارنتى حيث قيل لى : انه الآن طبيب تاجح ، وقد ضم الى جانبه  
والدته لتقضى معه أيامها الأخيرة فى هدوء .

- اتسمح لى بأن أسألك يا سيد نيكولاس : فيم تحلم الآن ؟  
واستطيع أن اتخيله جالسا الى قمطره بجوار النافذة وقد  
فاجاه الأستاذ بسؤاله فانتفض مذعورا ، وراح ينظر حواليه فى  
بلاهة وارتباك ويفمغم .  
- آسف يا سيدى !

وكان الوحيد الذى لا يناديه المدرس باسمه مجردا من باب  
السخرية .. طبعاً ..

وعلى أية حال فقد كانت علاقتى به طيبة ، وتوثقت صداقتنا  
تقريباً فشيئاً ، وانسحبت من المجموعات الأخرى ولم اكن فى  
الحقيقة انتمى لأية منها ، ولم يعد لى بين الرفاق صديق سواه ،  
وظلت علاقتنا معا فترة طويلة .. حتى عام ١٩٢٨ ، ومع ذلك فلم

اشعر قط طوال هذه المدة بانى فى حاجة لان اشركه فى تفكرى  
او ابته اسرارى او افتح له مغاليق قلبى .  
كل ماكنت ابغيه ، صديق اجده وقتما اريد ، اقضى معه سويعات  
فراغى دون ان يتضايق او اثقل عليه بصحبتى .

\*\*\*

كنت وفتند - غير مؤمن بوجود أى نوع من الصداقة الحقيقية  
لطول ما شاهدت من نفاق فى المحيط الذى كنت اعيش فيه . . .  
وكثيرا ما كنت اسمع أبى يتكلم فى التليفون :

- مرحبا بصديقى العزيز ! لا ، لا ، أرجوك ألا تكلف نفسك عناء  
الحضور ، يكفى ان تبعث أى انسان الى مكتبى صباحا ، ستكون  
الأوراق جاهزة ، نعم ، تحت امرك أيها العزيز !  
فتمة فريق من الناس كل الأمور ميسرة لهم ، وحوائجهم  
مقضية حتى دون ان يجشموا أنفسهم عناء السعى وراءها على حين  
كانت دهاليز المحافظة وأبهاؤها تبدو أغلب الأحيان مزدحمة  
بالعجائز من السيدات القرويات اللاتى يتعلقن بأهداب أى شخص  
يمر بهن متسائلات :

- هل تخبرنى يا ولدى ؟ اين استطيع ان احصل على معاش  
شيخوختى ؟

وقد ترى خارج الأبواب الأخرى طوابير طويلة من الرجال ،  
ثيابهم رثة وذقونهم لم تحلق ، وكذا بعض النسوة يحملن هياكل  
نحيلة يسمنها اطفالا . . برزت عظامهم وجفت جلودهم فقرا  
واملاقا . .

وما كنت ألوم أبى على ذلك لكنى لم اكن فخورا بمنصبه او  
بمدى ما يجمع بين يديه من نفوذ وسلطات وانا اراه يبدى شديد  
اهتمامه بطراز خاص من الناس ، يتسم لهم ويناديهم بقوله :  
« صديقى العزيز » عبارة كانت كالقذى فى عينى لطول ما كرهت  
سماعها ، وقد يدعوهم أحيانا على المائدة يشاطرهم الطعام !  
وفى تلك الأيام كانت فى لاروشيل شخصية بالغة الأهمية ،  
تحمل اسم « بوريل » لعبت دورا هاما فى مأساة عام ١٩٢٨ ، ومن  
إجل ذلك ارانى مضطرا الان اشير اليه فى حديثى .

وبالرغم من ان ذلك الشخص لم يكن موظفا رسميا ، وبلا اية  
مهادة او حرفة . فقد كان وحده بمثابة قوة معارضة هائلة تعرقل  
مشروعات ابي وتقض مضجعه ، وكان بي شعور خفى بان ابي  
يكرهه من أعماق قلبه ، ومع ذلك يحاول عبثا مهادنته وملاينته بلا  
فتيجة بتاتا .

واذ كان ابوه صائد سمك بسيطا ، فقد بدأ حياته فى البحار  
وعمل ربانا لاحدى السفن التجارية المملوكة لبعض الأهالى والتي  
تستخدم فى نقل الفحم الى انجلترا ، ولست أدري : ما الذى حدث  
تماما ؟ لانى لم اهتم ببحثه فى ذلك الحين ، وكل ما أعرفه انه أرغم  
ذات يوم على تقديم استقالته . .

وكان فى الأربعين من عمره ، فمضى يقضى ليله ونهاره على  
شاطئ البحر وفى سوق السمك بمرقا باليس ، وعلى المقاهى  
المحيطة بالميناء وخاصة « عند اميل » حيث كانت له مائدة خاصة  
فى أحد الأركان بجوار النافذة . . .

كان بدين الجسم ناعم الشعر قليل العناية بشيابه أو هندامه ،  
وحيثما أبصرته عيناي أول مرة بعد أن سمعتهم يذكرون اسمه فى  
بيتنا كدت أصعق لمظهره البريء ، فلم يكن يبدو عليه أية شراسة  
او فظاظة فى الخلق ، كان فى منظره ما يذكرنى بصديقى نيكولاس ،  
من العينين الزرقاوين بما فيهما من طيبة ودعة لولا أنه كان يضع  
عويونات سميكة عدساتها غليظة كأنها تلسكوب ! .

وليس من السهل على المرء أن يحدد الدور الذى كان يلعبه  
بوريل فى الحياة العامة وفى السياسة المحلية من غير أن نذكر ما  
كان يطلقه عليه كلا الجانبين معا : الجانب الذى يؤيده ، وذاك الذى  
يعارضه ، من الشائعات .

فحماة القانون والنظام ، الحكومة والمحافظ ، اصحاب السفن ،  
والناس من أمثال والدة نيكولاس يقولون : انه فوضوى خطير ، رجل  
لا يحلو له الصيد الا فى الماء العكر ، ارهابى ائيم يجد لذة كبيرة فى  
اثارة القلاقل والشغب .

وحتى افراد هذه الطائفة يعترفون بان ما يبدو عليه من طيبة



وبراءة وثبل ؟ ليس الا ستارا لما يخفيه في نفسه من ذكاء ودهاء الشياطين ، وعقلية قانونية ماهرة كثيرا ما هددت الأمن ووضعت الاجهزة الحاكمة في وضع حرج بالغ الدقة .

اما الباكون فهو في نظرهم بطل قلما يجود التاريخ بمثله ، جمع بين الثقافة والتجربة ، وكل منصبه في قيادة عابرات المحيط ليقود شعبه نحو النصر ، تواضع وتدلى من مكانه السامى ليجلس بين أهل قريته ومواطنيه وذراعه مفتوحان لهم يضمهم بين أحضانه ؟ ينصت الى شكاياتهم ومظالمهم بأذان مصغية واعية ، ولا يتوانى أبدا في بذل المعونة والنصيحة بلا مقابل !

ورث عن أبيه نصيب الثلث أو الربع في بعض قوارب الصيد ؟ ولم يكن ذلك كافيا أو ليقيم أوده ، فقد كان زوجا ولديه ثلاثة أولاد أربعة أولاد ، أحدهم دخل الليسيه في السنة التي تخرجت فيها ؟ وكان يسكن في بيت صغير وسط فضاء كبير من الاراضي المهجورة .

من أين كان يحصل على المال ليفطى نفقاته ومصروفاته ؟ أمن صندوق اتحاد عمال البسواخر الذي كان يتزعمه بطريقة غير رسمية ؟

وبالإضافة الى عمال البواخر في لاباليس ، ورجال شحن الفحم في المرقا ، امتد نفوذه أيضا الى جميع صيادي الأسماك في أعالي البحار حتى قيل : انه كان في وسعه - بإشارة خفيفة من يده أن يحدث اضرابا شاملا في جميع وسائل الشحن والتموين والصيد لو أراد !

لم اعلم بكل ذلك الا قبيل معركة الانتخابات الأخيرة بفترة وجيزة حيث رأيت أبي يستقبله بعد العشاء عدة مرات في مكتبة ؟ وكان في كل مرة يخرج من لسانه قلما مهموما ، هل كانا يعقدان اتفاقا ؟ . وهل كان أبي - بوصفه ممثل الحكومة - يشتري حياة الرجل ؟ والى أي مدى ذهب في محاولة اقناعه ؟

لست ادري عن ذلك شيئا يا ولدي ، لا أكثر مما تعرفه أنت عن أسرار عملي .

وكلما امتد بالإنسان العمر ، وحنكته التجارب أضاءت أمام  
إبصاره آفاق كانت من قبل غوامض مجهولة لا يستطيع لها ادراكا  
أو تفسيراً .

وكلما تذكرت « بوريل » تمثل في خاطري شخصاً خرافياً  
تتناقله الأساطير ، ومزا يخلد قصة الثورة والنضال ولذلك كنت  
أكن له في نفسي قدراً من الاحترام .

وأرجو إلا تسيء الفهم ، فما كان لي شأن بما يدور ، ولم أكن  
أقوى من تسمح لي بإبداء آرائى علانية ، أو الانحياز الى فريق دون  
فريق .

كان أبى يمثل السلطة التى تحكم ومن بعده السيد كورنير ، ثم  
العم فاشيه بعد ذلك بفترة طويلة . . وما يتبعهما من جهاز ادارى  
يمثلان السلطة التنفيذية ومن خلفهما أصحاب المصالح الذين يؤيدون  
النظام رعاية لمصالحهم وخوفاً من زوال نفوذهم ، ومن ثم يحرصون  
على بقاء الاحوال كما هى .

ومن وراء كل هؤلاء يقف أمثال والده نيكولاس ، بيتها الصغير  
النظيف وخلف متجرها البسيط الذى تباع فيه لوازم الأطفال -  
يمثلون الطبقة « الطيبة » من الناس يطيعون دون مناقشة لأنهم  
يجلوا على الطاعة .

ولا تعجب اذا علمت ان الامور كانت تختلط فى راسى بالرغم  
من انى كنت أعيش وسط الدائرة التى تحترف السياسة وتناقش  
بعمق وصراحة امامى كما كان بين ضيوفنا أعضاء الشيوخ والنواب  
أو زعماء النقابات والبارزون ، ومع كل ذلك فما كنت أهتم بتمييز  
طائفة دون اخرى . . أو أعنى ببحث أسباب الخلافات التى كانت  
تصنع هوة عميقة بين اليمين واليسار حتى الموضوعات السياسية  
التي كانت الصحف تفرد لها اعمدة طويلة لم تكن تثير فى نفسى أى  
فضول ، بل تبعث فيها الملل والضيق .

ولكنى كنت عدوا للحركات الانقلابية الثورية التى تهدف الى  
تغيير أى نظام استقرت رواسبه وهدمه ، وفى الوقت نفسه كان



أخرى وسمعتهم يذكرونه ، انطلق بمفرده دون ان يخبرنى او يطلب منى مرافقته . .

ولقد كان لك فى العام الماضى صديق ذكرنى مرآه نيكولاس ، هو ذلك الفتى الذى دعوته باسم فرديناند والذى قلت لى ان أباه قصاب خنازير ، الأمر الذى سبب صدمة عنيفة لوالدتك ، وقد حضر مرتين أو ثلاث مرات لزيارتك ، ولا أشك فى انكما خرجتما معا فى تلك المرات ، ولكنك لم تعد تذكر لنا عنه شيئاً كما اعتدت دائما مع أصدقائك الكثيرين .

هل كان أبى محقا فى شعوره بالقلق ؟ وهل كان نيكولاس حقا طرازا رديئا من الصبيان ماكان ينبغى لى ان أصادقه أو أماشيه ؟ كان أبى يعرف عن أصدقائى وما أفعله أكثر مما اعرفه أنا عنك ، ولا اعنى انى ألومك على تكتمك أسرارك .

وكنت بطبيعة الحال اخشاه وأهابه أكثر مما تهابنى أنت الآن ، ولكنى كنت افهم وأقدر اضطراره لأن يتخذ معى مواقف معينة فى بعض الأوقات حينما أتجاوز حدودى أو يبدر منى ما لا يليق من التصرفات ، دون أن أشعر بأى ضيق أو غضب ، بل كنت أتألم من أجله ، لثقتى بأنه انما يفعل أمرا كريها الى نفسه ولا يقصد الا الخير لى ، تماما مثلما يحدث معى الآن حياالك .

كذلك كنت اشعر بالأسف والحزن عليه ، لأنه حتى فى الفترات الوجيزة التى كان يختلسها من عمله المضى ليرتاح فيها لا يجد امامه الا نظرات أمى المشدودة الى الامام ! وكنت أحسده على سعة صدره وصبره العجيب .

كان يذهب مرة كل شهر الى باريس لأعمال ينجزها فى وزارة الداخلية ، وبعض الوزارات الأخرى ، وكثيرا ما كان يمكث بها يومين أو ثلاثة .

هل كانت له صديقة معينة يتردد عليها فى تلك المواعيد . . أما تراه كان يترك ذلك للمصادفات وحدها ؟ ومن المفهوم طبعا انى لم أسأله أبدا . . . رغم انى متأكد الآن



من أتى لو سألته لأجابني بكلّ صراحة وصدق كما تراتي أفعلاً  
بنفسي ذلك . . لو كنت مكانه .

وكانت لنا بعض لحظات المودة والألفة ، نتبادل فيها بعض  
الأحاديث القصيرة مساء كل يوم تقريباً مثلما أفعّل أنا وانت أحياناً  
ما عدا أنني أنا الذي كنت أزوره دواماً وأسعى إليه في غرفته .

وكان الطابق المخصّص لأقامتنا في المحافظة متسع الأرجاء عديد  
الغرف والأبهاء ، تشغل أختي منه سواء قبل زواجها أو بعده - طرفاً  
بعيداً يطل على الفناء الثاني الخلفي ، أما غرفتي فكانت على الطابق  
الأسفل . ولم يكن لدينا غرفة عائلية صغيرة للطعام ، فكنا نستعمل  
المائدة الكبرى المخصصة للمآدب الرسمية والمجاورة للصالون الكبير  
حيث تقام حفلات الاستقبال والرقص .

وحين كنا نخلو لأنفسنا وفتناول العشاء - الأمر الذي كان  
يحدث مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع : كان عددنا خمسة حول  
المائدة المعدة لجلوس عشرين . . يفصل بين كل فرد وآخر فراغ  
كبير - أبى وأمي ، وشقيقتي وزوجها ، وأنا . وشد ما كنت أشفق  
على الساقى ( فالنتين ) الذي كان يتعب لطول المسافة في توصيل  
الأطباق إلينا .

وما زلت أذكر تلك القاعة التي كنا نجلس فيها للطعام وتلك  
« النجفة » الضخمة ذات الخمسين مصباحاً كهربياً أو أكثر معلقة  
فوق رؤوسنا والتي لم تكن تضاء قط إلا في المآدب الرسمية ،  
ونكتفى بزواج من الشمعدانات على طرفي المائدة الكبيرة ، يكاد  
يكفى لتعرف ما في الصحن أمام عينيك ، على حين كانت تسبح  
الجدران وباقي الغرفة في الظلام وعلى الحائط المواجه لمكانى  
مباشرة فوق رأس شقيقتى سجادة باهتة اللون تستطيع بصعوبة  
بالغة تمييز رسوم بعض الفزلان ، ترعى العشب حول قناة جارياً ،

وكانت ثمة لوحة كبيرة معلقة على الجدار تمثل فناء ترعى  
مجموعة من الأوز ، وما زلت أرى في خيالي تلك الأوزة الضخمة  
البيضاء التي انفردت عن شقيقاتها في مؤخرة الصورة ، وبدت بارزة

وسنظ الاطار اللامع العريض كأنها أوزة ناضجة تحتل طبقا كبيرا  
تفري بأكلها!

ونحن - في شارع ماكماهون - لدينا من يقف على رؤوسنا في  
أثناء الطعام يلبي طلباتنا ، ولكن ما يكاد الخادم يقدم الصنف حتى  
ينسحب ويتركنا في هدوء حتى نستطيع أن نتحدث كما نشاء .

بيد انى - في طفولتى وصباى - لم أجرب هذه الحرية قط  
فكنت أشعر دائما بذلك الساقى الأسمر ذى الثياب البيضساء  
والسروال الأسود والكتفين العريضتين والوجه الصارم كأنه تمثال  
من البرونز . . كنت أشعر به دائما خلفى يتحرك بخفة القط حاملا  
بين يديه المفطتين بالقفاز الأبيض نوعا من الطعام .

وربما استغرب بعض أصدقائك ممن كنا ندعوهم للطعام ، حينما  
يشاهدوننى أعد المقعد لوالدتك لتجلس عليه أمام المائدة قبل أن  
أخذ مقعدى بجوارها فتلك عادة تعلمتها عن أبى الذى كانت من  
أحد واجباته الا تفوته ولا يفقل عنها أبدا .

وهناك كانت تجلس امى دون أن تخفض عينيها لتعبر عن شكرها  
ودون أن تبتسم ! وكأنها احدى ملكات العصور الوسطى تتقبل فى  
عظمة واستعلاء ضيافة أحد رعاياها وعبيدها المخلصين ! ثم تأكل فى  
صمت لا تشترك أبدا فى أى حديث أو مناقشة!

وفى اغلب الأوقات كان الحديث مقصورا على فاشيه وشقيقتى  
وكثيرا ما كان أبى - حين يتضايق من السكون القاتل أو لا يعجبه  
ما يدور بين ابنته وزوجها - ينظر الى قائلا:  
- وانت يا ولدى ، ماذا فعلت اليوم ؟

وذلك حتى يغير موضوع الحديث الذى اختاره فاشيه الذى  
كنت أعتقد دائما أنه يعتمد فيه اثاره أبى فسواء كان يتحدث فى  
الفنون والآداب أو فى الفلسفة أو الموسيقى أو فى القانون أو علم  
الإدارة أو حتى فى « المودة » فى الثياب أو الأثاث - كانت آراؤه  
دائما معارضة لآراء جدك ، وكأنه يجد لذة فى تسفيهه والوقوف  
على وجهه!

واكاد أقسم أن علاقته بشقيقتي التي انتهت بزواجه منها لم تبدأ داخل مبنى المحافظة ، فلم يكن لنا أى احتكاك بالموظفين ما عدا قلة يعدون على الأصابع ، مثل السيد تورينر الرجل العاقل الرزين مدير المكتب الخاص ، وهكتور لوازو السكرتير الأول ، وأحياناً مع سكرتيرة أبى الخاصة المدموازيل بونوم .

ولا بد أنهما تلاقيا فى المدينة ، وقد دفعه طموحه الى ان يتخطى الكثيرين ممن هم أكثر منه سناً وخبرة وارفع منه منصباً ، ولكنه كان يعلم ويؤمن بأنه يستحق ذلك وأكثر منه أيضاً فاستأنف قفزاته الى الأمام .

فهل أدرك أبى فيه ذلك الطموح وشجعه عليه ، او تراه حينما وافق على زواجه ومصاهرته كان مدفوعاً بمبدئه الذى لا يحيد عنه فى عدم التدخل فى حياة الآخرين حتى لو كانوا أبناءه ؟

ولو حدث مثل هذا الزواج فى محيط أية أسرة اخرى ، ما حال ضيق يد الزوج عن ان يخرج هو وزوجته ليقبلا بعيدين عن أسرتهما ، ولكن فاشيه الماكر الذى يخطط للمستقبل ، قد وجد مصلحة كبيرة فى ان يظل مرتبطاً بأسرة المحافظ فى نظر الخاصة والعامه حتى يظل دائماً فى الصورة ، وحتى تفتح أمامه جميع أبواب المجتمع اكراما لخاطر حاكم الاقليم !

ولو ظلت آرليت - حتى بعد زواجها - منضمة الينا قلباً وقالبا - كما كانت وهى بعد فتاة ، ما كانت هناك مشكلة فى محيط الأسرة ولكن الذى استرعى نظرى - وكنت لم أتجاوز بعد سنك الآن - هو أنها كانت - وبين كل يوم وآخر - تزداد عنا بعداً لتنضم بجسما وروحا الى زوجها !

وكنا حتى لحظة زواجها ننظر اليها كإى فرد من أسرة لا فرنسوا بل لقد كانت أكثر اتصالاً وارتباطاً بأبى منى صداقة ومودة ، وكثيراً ما كنت أراها على المائدة يتبادلان النظرات والابتسامات الامر الذى يدل على المشاركة فى الفكر وانهما كانا يتحدثان طويلاً فى الفية وتفاهيم .

ولكن ما كاد فاشيه يدخل فى حياتنا - خطيبا لها - حتى بدأت آرليت تتغير تماما فى طباعها وطريقة حديثها حتى الطريقة التى كانت تصف بها شعرها!

ولعل اكثر ما اثار دهشتى ان نظيرتى فى الحب قد انقلبت رأسا على عقب وانا ارى الطريقة التى بدأ فاشيه يعامل بها اختى! لم يكن يتملقها او يسعى لارضائها قط ، بل كانت هى التى بدأت - بعد أسابيع قليلة تعمل على تلبية طلباته وارضائه فى مذلة وخضوع تخشى عليه من النسيم حتى لا يجرح خديه! لا تشكو أبدا مهما أساء « الاتيكيت » وقواعد الأصول فى معاملتها .. كما يحدث كثيرا مع محدثى النعمة .

وبعد أن نشر مجموعة من القصائد فى عدة مجلات مختلفة بدأ يكتب قصة طويلة وكانت آرليت تسهر طوال الليل تكتب له على الآلة الكاتبة وهو يملأ عليها:

« على المرأة ان تكون مرآة لزوجها تنعكس عليها طباعه وشخصيته » .

وكان ابى يصفى فى صمت ، وربما قطب حاجبيه عبوسا فى بعض الأوقات أو يتسم متعجبا وهو يرى ابنته سلية أسرة لافرنسوا تبذل طاقتها فى خدمة زوجها بكل الوسائل على حين انه يتقبل كل ذلك كأنه حق من حقوقه!

كان موضع حسد من زملائه موظفى المحافظة لانه استطاع ان يفوز بابنته ، فشاء ان يتم مركب النقص فى نفسه فتماذى فى اظهار عدم اكترائه بذلك النسب ، وكأنما نحن الذين سعينا اليه وكأنما هو الذى اولانا شرفا كبيرا حينما تواضع فصاهرنا!

ومن امثلة ذلك انه كان آخر من يجلس الى مائدة الطعام حتى تضطر جميعا الى انتظاره ، وكان يحضر مرتديا روبه المنزلى وبدون ربطة عنق ، منتعلا فى قدميه الخف الذى يستعمله فى غرفة النوم .

وينظر الى زوجته وهو ينفخ من انفه فى استياء:



- هلا تركتمونى نصف ساعة أخرى حتى أنتهى من الامام  
الفصل !

وهو يقصد بذلك ان يظهر اشمئزازه من تمسكنا بتقاليد المائدة،  
ويعبر عن نفوره من المواعيد التى حددناها لتناول الوجبات !.

واذا كانت السنوات الطويلة لا بد ان تترك أثرا على كل انسان  
يظهر عليه بوضوح كلما تقدم به العمر ، فان فاشيه - من دون  
الناس جميعا لم يطرأ عليه أى تغير ، لم يزد وزنه درهما ولا حجه  
قراطا عما كان فى صدر شبابه سوى ان الدهاء والمكر وخبث  
الطوية التى كان يكتنزها فى أعماقه بدت أكثر ظهورا فى عينيه  
وحول فمه !

كان يذكرنى بذئب عجوز فى حركاته ترقب وحذر ، ويتأهب  
دائما للانتفاض والفتك بأية فريسة يسوقها سوء الحظ بين  
أنيابه !.

حتى قصصه التى لا احبها وان كنت اعترف بأنها قوية ومحبوكة  
الاطراف - تؤكد روحه الهجومية ورغبته المدفونة فى التشفى  
والانتقام ، أما مقالاته التى تتسم بالتهكم اللاذع والنقد المسموم  
الهدام والتى تفرد لها بعض الصحف أعمدة خاصة - فهى التى  
اكسبته الشهرة واحترام الناس ورهبتهم .

وبعد العشاء يشب واقفا يكاد يقلب مقعده فى وقاحة قبل ان  
يقدم الساقى اطباق الحلوى وينتهى العشاء ويعود لاستئناف عمله  
ثم تتبعه أختى بعد فترة قصيرة وتنطلق أمى الى فراشها مبكرة أما  
أبى فيفادر الطابق المخصص لسكنانا ويذهب الى مكتبه الرسمى  
ليزاول عمله فترة المساء .

وقد يعتقد الناس جميعا كما كنت اظن وقت ذاك انه يزاول  
أعمال وظيفته ، يقلب بين الأضابير والملفات التى لم يتسع وقته  
ليبحثها خلال النهار بسبب دخول وخروج مديرى الإدارات والأقسام  
ورنين أجراس التليفونات .

بيد انى اكتشفت انه كان فى تلك الساعات المتأخرة من الليل  
وفى ذلك المكتب القابع فى نهاية الممر الطويل بين مكاتب الموظفين

التي نلت منهم ، كان يخلو لنفسه ويفلق عليه باب مكتبه يستمتع بلحظات ممتعة يشبع بها هواية خاصة بعيدة عن روتين العمل اليومي .

وكانت القراءة افضل هواياته واحبها لنفسه ، ينكب على كتابه وقلمه الاحمر في يده يضع خطوطا تحت عبارات بأكملها ويضيف على هامش الصحيفة تعليقاته الطريفة وانطباعاته النفسية بخط جميل دقيق .

وكان ذلك من بين الاسباب التي جعلتني اتمسك بنفائس الكتب التي خلفها ابي ، حتى لا تقع بين براثن ذلك الذئب فاشيه مهما كانت التضحيات !

وكنت حالما أنتهى من أداء واجباتى انطلق الى ابي لالقي عليه تحية المساء ، وبالرغم من أنه لم يكن بيننا فى معظم الأحيان الكثير مما يقال فقد كانت تلك اللحظات من أسعد أوقاتي ، أفتح باب مكتبه الخارجى المبطن باللباد والمطاط وشرائح النحاس اللامع . ثم أطرق الباب الداخلى فى رفق وأدفعه دون أن أنتظر جوابا ، وهناك يجلس ابي بجوار المدفأة المتأججة نيرانها شتاء ، او بجانب النافذة الكبيرة المفتوحة على الفناء الخلفى صيفا يدخن سيجارة فى تلك الساعة من الليل ، والى الآن ما تزال رائحة التبغ تنبعث فى انفى ، وما زالت سحب الدخان الزرقاء تبدو أمام عيني وهى تدور فى حلقات حول ضوء المصباح ذى الفطاء المظلل والقابع خلف مقعده .

ويستدير نحوى قليلا وهو يفهم :

— هل هذا انت يا ولدى ؟

واقف بجوار المدفأة شتاء او بجانب النافذة صيفا دون أن آتى بحركة او انطق حرفا حتى يتم قراءة القطعة او الفقرة التى كان مشغولا بها .

وفى النهاية يرفع راسه ويرمقنى قائلا :

— حسنا ؟

والآن وبعد أن صرت ابا أعلم يقينا انه لم يكن يقبل عنى اضطرابا وحيرة !

- هل استذكرت جيدا ؟

- نوعا ما .

- أسعید أنت ؟

ولم يكن حديثنا - في اكثر الأوقات - يزيد كثيرا عن ذلك ، فأتحنى فوقه وكتابه منشور على ركبتيه ، وأطبع قبلة خفيفة على جبينه ثم انطلق الى فراشي ، وربما تبادلنا شيئا عن مجريات الأمور في ذلك اليوم .

لم يكن من طبعه استدراجي او محاولة اكراهي على الافضاء بما أعتقد في نفسي سرا .

وفي ليلة ما حينما ذهبت القى عليه تحية المساء ارانى فقرة في كتاب كان منهمكا في قراءته :

« قلما يصل الأبناء الى حقيقة حب الآباء لهم ورغبتهم الخاصة في تقديم النصيحة الصادقة ، الا بعد ان يتجاوزوا المرحلة التي يحتاجون فيها فعلا الى النصيحة والارشاد »

ولم اصل قط الى معسرفة اسم ذلك الكتاب او حتى اسم مؤلفه ، كذلك لم اسأل طبي عنه حتى لا اقلل من قيمة الرسالة الصامته التي كان يوحى بها الى والتي يخيل الى انه ربما ترك كتابه مفتوحا عندها حتى اصل واقراها بنفسى . .

والحقيقة التي لا مرء فيها اننى لم ادرك قط اى دور لعبه أبى في حياتى . ولسوف يستمر اثره باقيا خالدا في نفسى حتى بعد مماته الا بعد فوات الأوان .

كان يحاول دائما ان يعلمنى كيف تتخاطب بلغة العيون تماما كما كان يفعل هو حين يرمقنى بنظراته الفاحصة ، يستشف ما يدور برأسى . ويقرا ما يختلج بين جوانح نفسى دون حاجة الى كلام او حديث ، ومن ذلك انى فهمت حينما رأيت الحزن في نظراته ذات يوم انه قد حدس بآنى أميل الى الجانب الذى يقف فيه خصمه بوريل، وان فى نفسى ثورة عارمة ضد أولئك المحكومين الذين يقبلون الخنوع ويدينون بالطاعة العمياء دون مناقشة من أمثال نيكولاس ووالدته ؟

وكثيرا ما سألتني ضيوفا كما اعتاد أصدقاءنا أن يسألوك !  
- ما الذى اعتزمت أن تكونه عندما تكبر ؟ أمحافظ مثل أبك ؟  
وكنت فى طفولتى أجيب نفيا ، وكنت أقولها بحدة وخشونة  
ظالما أثارت ضحك الجميع .

- طبيب ؟ محام ؟ مكشف ؟

وكنت أعبس غاضبا ، وفى نفسى احساس غامض من الخجل  
لأنى عجزت عن الجواب . وكان أبى يسرع لنجدتى . فيغير الحديث  
فى موضوع آخر .

ولقد كان لمعظم أصدقائى فكرة أو هدف يضعونه نصب أعينهم  
منذ طفولتهم ، يسعون جاهدين لتحقيقه دون أن يحيدوا عنه قيد  
أنملة ، وفى النهاية يسعدون بتحقيق أحلامهم .

أما أنا فقد كان مجرد التفكير فى ذلك السؤال يفرعنى ، وأشعر  
بتقصيرى لجهلى بالمكان الذى سوف أشغله ، كما لو كان ذلك هروبا  
منى نحو تأدية واجباتى فى المجتمع ، وذلك على حسب تفكيرى كان  
لا يعادله الا شعور الجندى الجبان الذى يفر من ميدان الحرب متعللا  
بأوهى الأسباب .

وحين كنت أخلو لنفسى وأبدأ فى تحليل رغباتى وميولى حتى  
أصل الى معرفة نوع العمل الذى يروقنى وأعتقد أنى سأفقد وطنى  
به فى صدق وعزيمة أجد نفسى عاجزا تماما عن العثور على ضالتي  
حتى بلغ منى اليأس حدا آمنت فيه بأنى شخص فاشل لن يوفقا  
فى أى مجال ، وربما انتهى بى الأمر فأصبح كما مهمل معزولا عن  
تأدية أى دور هام فى المجتمع .

كنت أشعر بغضاضة فى ان أصير عبدا لاية وظيفه تربطنى فى  
مكان واحد ، كذلك لم أكن قوى البنية مشدود العضلات ميالا الى  
التفكير والابتكار بحيث أختار العمل الآلى أو اليدوى ، ولم أكن أهوى  
الرياضيات حتى أكون مهندسا ، ولا علم الحياة والحيوان حتى أغدو  
طبيبا ، وهكذا كانت تمر أمامى شتى الصور ، فأنفر منها جميعا .  
أما صديقى نيكولاس فكان يصر على أن يصير طبيبا مهما طال  
به الزمن !



وظلت تلك حالتى حتى بلغت الرابعة عشرة او الخامسة عشرة  
وحينئذ وجه لى احد النواب ذلك السؤال الثقيلى مرة اخرى  
وجدت نفسى اجيبه فورا ودون سابقة تفكير!

- اظننى سأدرس القانون .

وفوجيء أبى بذلك وكان حاضرا ، فابتسم مسرورا  
هل أسعده أن أقرر ذلك أخيرا ، وأسلك الطريق الذى طرقه  
قبلى ؟

ذلك ما اعتقدته ، ومن ثم لم أغير اجابتى قط .

- سوف أدرس القانون .

وكما أخبرتك فى مرة سابقة ، لم يكن ذلك لحب دفين مفقود  
او التعلق بالقضايا والفصوص فى مشاكل الناس ومتاعبهم ، بل انى كنت  
أرتعد هلعاً لمجرد تصورى بأنى سأقف فى حرم العدالة المقدس وأواجه  
القضاة المحترمين والخصوم والمحامين واتلاعب بالالفاظ الرنانة ،  
وأفسر مواد القانون بالطريقة التى تنقذ رأس موكلى من حبل المشنقة  
نظير اجر معلوم!

ولكنى وجدت فى تلك الاجابة ملاذا هدا به بالى وارتاحت اليه  
فسر فلم أعد أشغل قلبى وتفكيرى فى البحث عن مستقبل لى بعد  
ذلك واذا كان فى ذلك ما يبعث السرور فى نفس أبى فلا بأس أن  
أحذو حذوه ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

ونجحت فى البكالوريا ، كما نجح ايضا نيكولاس فى العام نفسه  
« ١٩٢٦ » بعد زواج شقيقتى بضعة شهور .

وان الدهشة لتستبد بى حينما ارى تلك الاعوام الطويلة بما  
بحفلت من احداث ومشاعر واحاسيس وقد اختصرتها فى صفحات  
قليلة تفرؤها فى دقائق ، ومع ذلك فانى ابذل جهدى لأحدثك بكل  
شئ واشعر فى بعض الاحيان بأنى اضيف اشياء كانت مجهولة لى  
اقى صباى وطفولتى ، ولم تتكشف لى الا الآن .

وفى اكتوبر دخلت كلية الحقوق فى « بواتينيه » حيث  
أستأجر لى والدى غرفة مفروشة فى احد البيوت الخاصة خلف

بمجلس المدينة ، كان بيتنا صغيراً جميلاً يملكه السيد بلاتكبان  
وزوجته ، وأعاد لنفسي ذكريات بيوت مدينة فتيلى ورائحة مطبخ  
والدة نيكولاس .

وأكاد أرى أبى الآن أنيقاً وشيقاً نبيل المنظر كما كان دائماً ،  
يقف على باب غرفتي بعد أن تركتنا صاحبة البيت نخلو لأنفسنا .  
كانت جدران الغرفة مغطاة بورق أصفر اللون مزين بوردة  
صغيرة حمراء ، وبها برير خشبي متين الصنع عليه حشية سميقة  
وملاء بيضاء ، وأغطية صوفية من نوع ممتاز ، وفي المدفأة نار حمراء  
تأجج ، ومن خلال النافذة تبدو أسطح البيوت المجاورة المغطاة  
بالقرميد الأحمر .

وفتح أبى النافذة ، ونظر يمينا ويسارا ، وكان أحد باعة  
الفاكهة قد توقف لتوه بعربته أمام باب الدار ، وكانت الساعة لم  
تتجاوز العاشرة صباحاً ، والسماء ملبدة بالسحب تنذر بمطار  
وشبكة الهطول .

— حسنا يا ولدي ؟ .

واظن أنى ابتسمت ابتسامة باهتة .

وفي حركة آلية مضي يفتح أدراج « البوقيه » المجاور لصوان  
إيبى ، ثم فتح ضلقتى الصوان حيث كانت « الشماعات » تنتظر  
ثيابى ، ثم راح يتأمل قطعة السجاد السميقة بجوار الفراش .  
— ينبغي أن أعود الى لاروشيل .

— أجل .

وكنا نقف : أحدنا فى مواجهة الآخر ، كلانا يشعر بالاضطراب .  
وكان أبى هو الذى نقض عن نفسه الحيرة والاضطراب ، فقال :  
— حسنا ، هذه هى الحياة ! .

كلمات قليلة تحمل كثيرا من المعانى والمشاعر .

وقبل أن يدلف من الباب خارجا استدار نحوى وهو يقول :

— هل سنراك فى أيام السبت ؟

— اعتقد ذلك ، بل من المؤكد اذا لم . . .

— الى اللقاء يا ولدى .

وهكذا تركنى بمفردى أواجه المستقبل معتمدا على نفسى لأول

مرة .

## الفصل السابع

كنت وقت ذلك فى الثامنة عشرة من عمرى ، قوى البنيان وشيق القوام نشيط الحركة فخورا بدراجتى البخارية الجديدة التى أهداها لى أبى لمناسبة نجاحى فى البكالوريا ، ولم أعد طفلا يلبس البنطلون القصير أو حدثا بالصف الثانوى ، بل فى المرحلة الجامعية أنتظم فى سلك الرجال ، واتنفس بملء رئتى فى غرفة خاصة بى على أبواب حياة جديدة ، أخطو خطواتى الأولى بغير قليل من الرهبة والخوف .

وذهبت الى لاروشيل يوم السبت من ذلك الأسبوع ، ثم كل سبت من الأسابيع التالية ماعدا الأسبوع الثالث ، حيث كنت أعود الى غرفتى التى خيل الى أنها تغيرت كثيرا، واطردد على قاعة الطعام لظلالها وأضوائها الخافتة ، حيث تواجهنى نظرات أمى المشدودة للأمام وصوت فاشيه الكريه لأذنى ووجهه الذئبى المقوت .

ولم أتلق من نيكولاس سوى بطاقتين يطمئننى فيهما على ان صحته جيدة وعلى أن أموره تسير على خير ما يرام فى بوردو وخاصة أن أساتذته الجدد « قوم مهذبون » وأضاف ان لديه كلاما كثيرا يملأ عربات سكة حديدية ويدخره لى حتى نتقابل فى اجازة عيد الميلاد .

ويدهشنى أن اتبين فجأة كيف تخوننى الذاكرة فأغفل بعض التفاصيل الهامة حينما أصل اليها ، أو بعبارة أخرى أجد نفسى عاجزا عن ترتيب الوقائع على حسب توقيت حدوثها وأرى الصور تتابع امام ناظرى فى سرعة خاطفة الأمر الذى يتعسر عليها ربطها بما كانت عليه من ترتيب ونظام .

فمثلا احدى تلك الصور أرى فيها نفسى - يوم الأحد الأول من سفرى - واقفا بميدان الجيش بمدينة لاروشيل . واقفا فى الردهة الخارجية أدخن احدى سجائرى فى أثناء الاستراحة بسيئنا اوليمبيا ، ومر بى أحد رفاقى السابقين يتأبط ذراع صديقه حسناء ، وما كاد يلمحنى حتى اشار لى بعينه باسمها وكان الطقس فى تلك الليلة باردا والسماء ملبدة بالغيوم فعدت مباشرة الى مقرى

بدار المحافظة ، وكانت شقيقتى وزوجها يستقبلان بعض الأصدقاء فى غرفة الجلوس ويتحدثون جميعا بصوت مرتفع ، فتسللت مباشرة الى غرفتى التمس بين جدرانها الباردة دفئا .

ومنظر آخر فى بواتيبه : فى الأحد الثالث الذى لم أسافر فيه الى لاروشيل ، حيث ظلت السماء تمطر مدرارا منذ الليلة السابقة، وفى الصباح كانت الطرقات كلها مغطاة بالجليد . فانطلقت الى المشرب وانتحيت مائدة منعزلة ، احتسى كأسا من الجعة وأراقب بعض طلبة الصف الثالث وهم يلعبون البلياردو .

صور كثيرة أنشرها أمامى كأوراق اللعب ، ومن بينها أيضا ما حدث فى ليلة عيد الميلاد حينما كنت أجلس مع صديقى نيكولاس فى أحد مقاهى لاروشيل نتحدث ، وإذا أمسك نيكولاس بطرف أى حديث ، فلك أن تراهن بما شئت أنه لن يكف أبدا عن الخسوض فيه ، وهكذا ظل يتحدث فى موضوع واحد حتى الواحدة صباحا حينما أوصلنى فى الطريق الى باب المحافظة . .

وقال : لا بد من أن نجد من يشاركنا فى عطلتنا ، ولسوف أعثر على ضالتنا سريعا وحتما .

وكانت ثمة شجرة عيد ميلاد هائلة الحجم تحتل غرفة الجلوس لم تكن لنا ، انها شجرة رسمية اقيمت من أجل أطفال وأبناء موظفى المحافظة والموظفين أنفسهم ، ولقد احتفلوا جميعا بأخذ هداياهم من بين فروعها عصر ذلك اليوم ، وكانت اختى قد انطلقت مع فاشبيه لمشاهدة بعض الاحتفالات الليلية وأمى نائمة ، ووجدت أبى يقرأ فى هدوء بغرفته وفى ركنه المحبب الى نفسه ، وكان دخان التبغ يملأ الغرفة أكثر من ذى قبل .

– ميلاد سعيد يا أبتى .

– ميلاد سعيد يا بنى .

– هل أمضيت وقتا طيبا ؟

– تحدثنا طول السهرة ، انا ونيكولاس فى مقهى دى لايبه . .

وكانت معرفته بنيكولاس سطحية يراه حين يحضر لزيارتي

لكنه لم يستوقفه ولم يتحدث معه .



— هل «ماما» على ما يرام؟

— نعم ، لقد بكرت في الذهاب إلى فراشها كعادتها وسأحذو  
بحدوها بعد قليل! ..

ولا ريب في أنه كان يريد الانتهاء من الباب الذي يقرأ فيه إن  
ربما الكتاب كله .

— طابت ليلتك .

— طابت ليلتك .



واستيقظت في الصباح التالي محموما ، الأم فظيعة في كل  
جسمي ، طعم مرير في لساني ، وحين حاولت النهوض اصططكت  
وكبتاي فلم تقو ساقاي على حملي ، ولم تمض سوى ساعات حتى ظهر  
البرد على وجهي فأحمر أنفي ، وأصابني الصداع حتى كاد ينفجر  
له رأسى ، ويبدو أنه كان لدى استعداد للإصابة بالانفلونزا ،  
وشجعها السهر الطويل .

وأضيت ثلاثة أيام لا أخلع عنى منامتي ، أجز جسمي المنهوك  
تنقلا في صعوبة بالغة من الفراش إلى المقعد الكبير ذي المسندين ،  
أحاول القراءة أحيانا ، ثم أتطلع من النافذة أحيانا أخرى ، وكرهت  
السجائر فقد كان للدخان مذاق كريه في فمي .

كان عيد الميلاد في ذلك العام شديد القسوة قارص البرودة ،  
بحرارته هبّطت عدة درجات تحت الصفر فتجمد كل شيء ، حتى  
الحياة نفسها تجمدت عن الحركة ، وفي الساعات الأولى من  
الصباح كنت أشاهد المؤمنين الذين هرعوا لحضور قداس الصباح  
في الكنائس ، والمخمورين الذين لفظتهم المشارب والحانات بعد  
سهر طويل ضحكوا وعبثوا ورقصوا فيه ما شاء لهم المرح ، وكل من  
اضطرت له ظروفه للوجود خارج الأبواب في تلك الساعة كانوا يرتعدون  
وقد غطى الجليد رءوسهم حتى أقدامهم ، وكأنه العهن المنفوش  
يل نجيل أن السماء والأرض حتى الحجارة التي شيدت منها المنازل  
وارصفة الطرق وأعمدة المصابيح كلها كانت تلمع بياض ناصع  
لأنها نصال سيوف أو خناجر حادة ماضية .

واقبلت طباحتنا بياتريس تحمل لي افطاري ، ولكنى نجيتنه  
جانباً ولم المسه وبعد ذلك جاء أبى بمنامته وروبه المنزلى .  
- امريض أنت ؟ .

- انفلونزا بسيطة على ما اعتقد .  
ومكث بجوارى حوالى عشر دقائق ثم انطلق الى مكتبه ، ربما  
ليستأنف القراءة .

ولم ستيقظ شقيقتى وزوجها الا وقد انتصف النهار، فحضرا  
بعد الفداء لزيارتى ، دخلت آرليت فى تردد تسألنى عن صحتى  
وهى تختلس النظرات نحو زوجها الذى رفض الدخول الى غرفتى  
وظل واقفا بجوار الباب المفتوح لأنه يخشى الاصابة بالعدوى . ثم  
عجلا بالانصراف معتذرين بمشاغلهما .

ولم يتصل بى نيكولاس تليفونيا فى ذلك اليوم ، ولا فى اليوم  
التالى ، حقيقة لم يكن بيتنا موعد محدود لآى لقاء ، ولكننا كنا  
متفقين على قضاء الجزء الأكبر من اجازتنا معا ، الأمر الذى ضايقنى  
لعدم سؤاله عنى .

لماذا شعرت بالضياح والوحدة ؟ كان كل ما حولى صامتاسا كنا  
سكون القبور : دار المحافظة ذات الطوابق الكثيرة والأجنحة المتعددة  
وعشرات المكاتب والغرف التى لاتخلو أبدا من الحركة والعمل  
والموظفين والسعاة وأصحاب المصالح والأعمال - كانت كلها مهجورة  
خاوية على عروشها فى عظة عيد الميلاد .

حتى حركة المرور فى الميدان الكبير كأنما قد أصيبت بالشلل ؛  
عدد ضئيل من السيارات ، أقل كثيرا مما اعتدنا رؤيته ، ونقر  
قليل من المارة يهرولون مسرعين وقد دسوا أيديهم فى جيوبهم  
ورفعوا ياقات معاطفهم على حين كنت ألمح حلقات كثيفة من الدخان  
ينبعث من انوفهم واقفواهم تطوف حول رءوسهم .

واذكر انى رأيت أسيرة تمضى فى الطريق - قرب الظهر -  
لعلها كانت فى سبيلها لزيارة جد او جدة لمناسبة العيد - مؤلفة  
من خمسة افراد - من بينها ثلاثة اطفال . ارتدوا جميعا ثياب  
العيد الجديدة الزاهية . واحد الاطفال فى الرابعة او الخامسة

حول رقبتة وشاح ثقيل احمر ، وفوق رأسه طاقة صوفية حمراء ،  
وكانت أمه تجذبه وتجره في عنف وقوة حتى يسير وهو في عناده  
العجيب يبدو مشاكسا لا يريد .

ويبدو أن الوالدين كانا في عجلة من أمرهما ، أعصابهما قلقة  
متوترة بعد سهر طويل وصباح حافل بالصخب والضجيج مع ما  
اقتضاه ارتداء الجميع لثيابهم من عناء وجهد كبير ، فكنت أرى  
أفواههم تفتح ثم تغلق دون أن أسمع حديثهم من خلال زجاج  
نافذتى ، وأخيرا دفعت الأم طفلها الصغير في ظهره فسقط متزحلقا  
بثيابه الجديدة فوق الأرض المبتلة .

ولابد أنها كانت تأمره بأن يستوى على قدميه ، وتهدهد به بحرمانه  
من لعبه وهداياها أو بآية عقوبة أخرى ، ولكن الشيطان جعل أذنا من  
ظين ، وأخرى من عجين ! وكأنه وجد متعة عميقة في أن يسير  
أعصاب والدته الى النهاية ، فلما نفذ صبرها وضاق صدرها  
تحولت نحو زوجها تنفث ثورتها وتصب عليه غضبها ، ولا شك في  
أنها اتهمته بالوقوف ساكنا مكتوف اليدين كأنما الأمر لا يعنيه ،  
ووصمته بالضعف والتخاذل وتدليله للأولاد وافساد اخلاقهم ، أو  
شيء من هذا القبيل .

وكان يرتدى معطفا قديما اسود اللون ، ووقف برهة مترددا  
ينصت لصياحها في ضيق ، وأخيرا جذب وليده من يده جذبة  
قوية حتى أقامه على ساقيه ، ثم لطمه على وجهه في عنف ، لا أشك  
أبدا في أنها آلمت الأب أكثر مما تألم لها الطفل .

ولقد هزتنى تلك اللطمة ، فوثبت من مكاني كأنما قد لدغني  
عقرب ، وفي تلك اللحظة شعرت برباط خفى يجذب بين روحينا ،  
أنا وذلك الأب المسكين ، وشد ما كانت دهشتي حينما رفع نظره الى  
أعلى وشاهدني خلف النافذة ، ولا أستطيع أن أصف لك معاني  
الأسف والخجل التي قرأتها في وجهه تلك اللحظة وهو يطأطأ  
وأسه كأنه يعتذر للعالم بأسرها عما فعل .

\*\*\*

لم يتصل بي نيكولاس في اليوم الثالث ،

وفى اليوم الرابع سمعت طرقا على الباب فقلت « ادخل »  
وإذا به نيكولاس يحمل معه نسيم الحياة والدنيا خارج تلك المقبرة  
التي أسكننى فيها المرض ، وكانت ثيابه مبتلة بالماء عليها بعض  
آثار الجليد .

- قيل لى : انك لست على ما يرام ، وأرجو الا يكون الامر  
خطيرا ؟ .

ولم يتريث حتى أجيب ، كان متحفزا ممتلئا بالانباء التي  
يدخرها لى بتلك التطورات التي بدأت تحدث له فى بوردو . وقع  
أسيرا لها ولم يستطع الفكك منها .

- لدى سيل من الأنباء يا صديقى العجوز ، أنباء طيبة ، أنباء  
مشرية سوف تجعلك تقفز من فراشك فى التو والساعة ! أتذكر  
ما كنا نتحدث فيه ليلة عيد الميلاد ؟ .

كانت وجنتاه محمرتين بعد أن لفحته برودة الهواء القارص  
فى الخارج ، ولم ينتظر حتى يجلس ، كان يتحرق انفعالا ، نافذ  
الصبر غاضبا حينما رآنى أجلس هادئا فى مقعدى الوثير وقد  
دثرت ساقى بغطائى الصوفى الثقيل وكأنى عجوز كسيح ، وبالقرب  
من يدي أبريق من البلور به عصير الليمون .

وكان يصيح فى أنفاس لاهثة ، كأنما قد قطع الدرج الى غرفتى  
عدوا .

- أبشر يا ولدى ! لقد واتانى الحظ السعيد بمحظية  
موفقة و . . .

- اتسمح لى بالتدخين ؟

- بالطبع .

- وانت الا تدخن ؟

- ليست بى رغبة الآن .

- أعرنى سمعك وانصت جيدا لما أقول : اننى سأبحث الك عن

هروس ممتازة ولعلى أوفق .

ولقد كان نيكولاس يتميز على الدوام بروحه التي تفيض دعابة

ومرحا .



ولابد انه قد صعق لجمودى وعدم تجاوبى لروحه المتلهفة  
وحماسته المتدفقة ، كنت اتصت اليه دون اهتمام او اكتراث ، وهو  
الذى يحاول ان يكسب كلماته رنين النصر ، وما كان ذلك حسدا  
متى لما نال من نعيم قد حرمته . .

وجلس اخيرا على احد المقاعد بوضع عكسى وجهه الى المسند  
عاقدا ذراعيه حول ظهر المقعد . وهو يجذب انفاس سيجارته من  
حين لآخر وعيناه تلمعان غبطة وسرورا حتى قضينا سهرة ممتعة  
فى شتى الاحاديث .

### الفصل الثامن

كنت امر خلال اهم عامين من مراحل حياتى ، بل اجمل واخطر  
لحظات عمرى ، ومع ذلك فلم اكن ادرك ذلك ، ولم اكن لاعترف به  
لاى مخلوق فى الدنيا ، ربما كان ذلك لوجود فارق كبير بين ماكنت  
آمل فى ان يحدث لى ، وما وقع لى فعلا ، ومن العسير ان توقظ  
اى انسان من حلم جميل للبد الا اذا ركته بقوة ! .

وحتى الآن . . مازالت تلك المحاورة الخالدة التى تدور بين  
كبار السن ومن يصغرونهم . . تبعث فى نفسى الكثير من الحنق  
والغضب ، بل لقد شاهدتك بنفسى حين تسمع ذلك السؤال . .  
تنكشر فى نفسك برغمك فى شك وارتباب :

– كم عمرك ايها الفتى ؟ .

ويجيب الشاب مترددا ، لانه تعلم ان يتأدب مع من يكبره .  
– ثمانية عشر عاما . يا سيدى .

والاجابة هى هى دائما لا تتغير ، فالسائل يهتف متكلفا الدعابة  
والضحك :

– احلى ايام العمر ، اتى لاهب ما املك حتى اعود لذلك العمر  
مرة اخرى ، وربما اردف وهو يتنهد من أعماقه :

– على شرط ان يكون لى ما لدى الآن من تجارب ! .

اى تجارب يعنيهها ذلك الاحمق ؟ هل الانسان لن يستطيع فى

بحياته الواقعية أن يقف بظموحه عند خط مرسوم ، أو يطفىء ظمأه الشديد للوصول - مهما فعل - الى قمة الاشباع والاكتفاء اللانهائي ؟ كأنكم أيها الشباب لم تصلوا الى تلك النتيجة بعد ! .

ويتشوقون عن براءة الطفولة وجمالها كأن أطفالنا لا تواجههم منذ أن يدرجوا على الأرض ، مئات المصاعب والمشاكل المؤلمة التي يتحاولون مناقشتها بينهم وبين أنفسهم .

وتحن نتلهم في شره ونهم على السعادة ، ونشعر بأنها في متناول أيدينا ، ولكن ما تكاد نمسك بها حتى تفلت من بين أصابعنا كالزئبق ، وتقبض على الهواء بسبب تافه لم يكن في الحسبان قد يكون مجرد ابتسامة ساخرة او كلمة تفلت منا دون قصد ! .



ولقد حدثت بالأمس احدى تلك المشادات العائلية العنيفة التي قلما تحدث في حضورك بل لعلها الوحيدة التي شهدتها أنت ولو وقعت في ظروف أخرى ما كلفت نفسي عناء الإشارة إليها في هذا المقام وخاصة أنى الآن أحدثك عن شبابى ، ولكنها كانت مهزلة لم تخل من فائدة ومفزى عميق في الوقت نفسه ، ولذلك فأنا اذكرها لأنها جاءت في الوقت المناسب لترسم صورة ناطقة عن سلوك الآباء نحو الأبناء :

ومن الغريب انه لم يكن ثمة أية مقدمات ، او كما يقول الإنجليز ( عاصفة والسمناء صافية ) ، وكنا نجلس على مائدة الغداء بحوالى الواحدة والشمس تفرقنا بأشعتها الساطعة والجو بديع وكل شيء جميل حتى زهرة الجراتيوم الملوكة للأنسة أوغستين كانت كأنها ترقص من السعادة .

ولا أتذكر قيم كنا نتحدث ؟ لكنه كان حديثا مرحا لا أهمية له حينما التفتت أمك فجأة وكنت قد نسيت أنه يوم الخميس .

- هل ستأتى معى لتزور عمك يا جان بول ؟ -

ولم أكن أعلم ان عمك تقيم حفل استقبال في بيتها ، كذلك كنت انصت للحديث بنصف اذن ، وسمعتك تسألها :

– متى ؟ .

– حوالى الخامسة ، وسيكون هناك بعض الشخصيات ممن يفيدك كثيرا ان تتعرف بهم . .

وكنت اكره هذه العبارة ، ومع ذلك فلم تطرف لى عين ، ولم اشأ ان اؤثر عليك ، ولمحت التردد والحيرة فى عينيك ، وكنت أفهم ذلك جيدا . . التردد الذى يصيبك ويصيب كل الشبان فى سنك حينما تعترضهم عقبة من العسير تخطيها ، ولا بد من تخطيها أيضا .

– هذا شيء يؤسف له حقا يا «ماما» .

– ولماذا ؟ .

– لأن على واجبا منزليا لابد ان انهيه عصر اليوم فى الرياضة والحساب .

– ولماذا لا تبدؤه فورا ؟ .

ولاريب فى ان من حق أمك – وقد غدوت رجلا ملء ثيابك – ان تفخر بك أمام الناس ، ولكنها تغفل عن ان أصدقاءها لا يمكن بالضرورة القسوى ان يكونوا أصدقاءك ، وانك لا تشعر بأى حب أو رابطة تربطك بمن يترددون على صالون فاشيه أو عمتك آرليت، ولا يروك ذلك الوسط أو يبعث فى نفسك أى صدى من متعة أو اهتمام تماما كما اشعر انا شخصيا .

– سأحاول ذلك يا أماء مادامت هذه مشيئتك حقا ، ولكنى لن أستطيع ان أوكد لك .

وكان من عاداتها – اذا ذهبت لاحدى حفلات الكوكتيل التى تقيمها عمتك – ان تعود على العشاء ، وكثيرا ما كانت تتصل بنا تليفونيا وتطلب ان نتناول طعامنا بدونها ، فلماذا عادت هذه المرة فى وقت مبكر وفى حالة نفسية نائرة ؟ .

ولقد وجدت صديقك الجديد – زابو – معك فى غرفتك ، ولم تبد أى تعليق على ذلك وقتئذ فى مواجهته ، بيد أنها ما كادت تجلس للعشاء حتى انطلقت تنفث من غضبها . .

تخاطبتنى قائلة:

- آلين! أتعرف لماذا لم يستطع جان بول مرافقتى عصر اليوم؟

ويبدو أنى أصاب بالصمم أحيانا!

- ألم تسمع ما قلت؟

- بلى طبعاً.

- ولماذا لا تقول شيئاً؟

- هل سمعته يتحدث عن واجب الحساب المنزلى الذى كان

«من الضرورى» أن ينهيه؟

- أجل.

- وهل تعلم ما ذلك الواجب الذى حال بينه وبين مرافقتى؟

وبدأت أنت تقول فى هدوء:

- أرجو أن تعيرينى سمعك يا أماه، دعينى أوضح الأمر لأبى،

- ليس هناك ما يدعو للإيضاح، هل حصل أو لم يحصل أنى

وجدتك مختلياً بصديقك الجديد الذى يشبهه فى منظره باعة

الروبابكيا؟

- أنا؟

- هل كان ثمة موعد سابق بينكما؟

- سوف... .

- وبعبارة أخرى: كنت تعلم أنه آت ومن أجله هو... .

ثم تحولت الى... .

- ان ما يبعث فى نفسى الضيق والاشمئزاز هو افتقاره الى

الصدق والصراحة، واعتياده التلاعب والكذب، وطريقته الخبيثة

فى اصراره على أن يفعل ما يريد، وأنت! أنت تجلس أمامه تعضده

وتؤازره!

- انى لا أعضده ولا أوازره!

- ولكنك لا تؤيدنى أيضاً، ولا شك أنك مسرور لذلك!

لا، لا! وإذا شئت الصدق فأنا ألومكما معا فى قرارة نفسى

وخاصة والدتك لأنها بالغة الرشد.



لقد تناسلت أو نسيت أيام أن كانت هي في مثل عمرك ، لكنني لم أنسه ، وذلك هو الفارق بيننا ! فقد أقسمت يميننا لا احنت فيه بيني وبين نفسي إلا أنسى ، ولقد بدلت جهدي حتى الآن في أن أحافظ على قسمي .

انه كذاب ، مخادع ، يروغ من بين أصابعك ، كما تروغ السنحالي ، ومع ذلك أراك تبدو هادئا ناعم البال ، ترمقه في رضا واستحسان .

ووالدتك تخلط بين الموافقة أو الرضا ، وبين الفهم أو الإدراك أو العقو . . .

وربما كانت هي أيام شبابها كذابة مخادعة ، حتى لو كانت قد ركفت الآن عن الكذب والخداع . . تماما كما كذبت أنا ، وكما يكذب بعض الفتيان أيضا ، ويجدون أنفسهم مرقمين على الكذب ، لأن الآباء يفرضون عليهم قائمة طويلة من المحرمات ! .

كثير مما تهفو اليه قلوبهم ممنوع معنا باتا ، وكلمة (لا) الناهية تبدأ كل جملة نوجهها اليهم . . ونحن المسئولون عن انحرافهم وخذاعهم لنا وكذبهم علينا . .

ومع ذلك فالطفولة تمقت الخداع والكذب أكثر منا نحن الكبار ، وهم يستاءون في أعماقهم من أرقامنا لهم على الكذب مدنسين طهارتهم التي خلقوا عليها حتى لا تفسد عليهم متعهم البريئة ! .

ونختاما أقول لك في هدوء وحب وحنان !

ظابت ليلتك يا ولدي .

(( تمت ))





**الدار القومية للطباعة والنشر**





وزارة الثقافة والإرشاد القومي

# الدار القومية للطباعة والنشر



تعمل على تحقيق التوعية الثقافية التي تاري بها الرئيس جمال عبد الناصر



## الفتاهة

مركز عالمي للإشعاع الثقافي  
كتاب كل ست ساعات



مكتبات التلاوة

نيويورك لندن  
الجزائري بيروت  
طرابلس بغداد  
الخرطوم الإسكندرية  
القاهرة



Bibliotheca Alexandrina



0540430

